الى القارئ

هذا العدد أردناه خاصا بابن رشيق الكاتب القيرواني المبرز في فن نقد الشعر والذى طبقت شهرته الآفاق في الماضي والحاضر وبقى اسمه عالقا بأذهان الجماهير مدلا من طرف خفي على ما كان للقيروان في فترة معينة من حضارة زاهرة وإشعاع تجاوز الرقعة الصغيرة لافريقية ليمتد الى المغرب العربى بأكمله ويصل الى الضفة الاخرى من البحر المتوسط •

وقد ارادت القيروان في هذه الايام الاخيرة بما أوجدته من هياكل أساسية ثقافية هامة ان تحتضن ملتقى نظمه اتحاد الكتاب التونسيين بالتعاون مع وزارة الثقافة وخصصه لابن رشيق والنقد الادبى بحثا ودرسا • وكانت حصيلة هذا الملتقى من البحوث والدراسات والقصائد التى ألقيت بالمناسبة وحامت حول ابن رشيق وما أثير بشانه من نظريات وآراء ، إضافة هامة أحببنا أن نشرك القراء الكرام في الاستفادة منها وتوسيع نطاق انتشارها حتى لا يكون حظها كحظ الكثير من مثيلاتها أى أن تقبع في الرفوف ويتراكم عليها الغبار في انتظار من يخلصها من أسر الاهمال والأمانى •

ونحن بهذه المناسبة نعتذر لقرائنا الكرام وخاصة للكتاب والشعراء الذين يساهمون بانتاجهم في إثراء الادب التونسى بواسطة مجلتنا عن التاخير في نشر آثارهم وما نكلفهم من انتظار بروز ما تجود به قرائحهم مما يؤدى ببعض الشبان منهم الى الاستياء وتقديم العرائض رغبة في الاسراع بنشر باكورة أدبهم على صفحات مجلتنا وهو مما يدعونا الى الاعتزاز بهذه الظاهرة لأنها تبرز لنا مدى الثقة التى ظفرت بها مجلة الفكر لدى هؤلاء الشباب في تنافسهم وتحمسهم للمساهمة فيها •

على أننا متيقنون من أن اقدامنا على مثل هذه الاعداد الممتازة يلقى من القراء عناية مرموقة ويعد مساهمة في التعريف بما يجد في حقل الثقافة والادب في بلادنا ، خاصة وان من المساهمين في هذا العدد من لم يتمكن من حضور الملتقى وأرادوا إفراد مجلة الفكر بانتاجهم ونحن نشكرهم على هذا جزيل الشكر •

كما لا يفوتنا التنبيه الى اننا اقتصرنا فى هذا العدد على نشر بعض الدراسات والقصائد لا زهدا فى البقية وهى التى كانت فى الملتقى مجالا للنقاش والملاظة بل اعتبارا لتكاليف الطبع التى ما فتئت ترتفع وتتفاقم بين الفينة والفينة وعلمنا بأن وزارة الثقافة تعتزم نشر كل ما تم بالملتقى من دراسات وقصائد ونقاش فى كتيب خاص تعميما للفائدة واتماما لها •

وعلى كل فان تكرار هذه الملتقيات والحلقات الدراسية وما يتبعها من نشر وتعليقات وحوار سواء نظمها اتحاد الكتاب التونسيين او وزارة الثقافة او اللجنة الثقافية القومية او اللجان الثقافية الجهوية او غيرها من المؤسسات إنما هو الذى يخدم بالذات ما نصبو اليه من نهضة ثقافية شاملة بدونها لا يكون للنهضة الاقتصادية والازدهار المادى والتطور الاجتماعى معنى •

وإن فى هذه اللقاءات الادبية والفكرية فوائد جمة وخاصة اذا كانت على صعيد اوسع من الرقعة التونسية إذ هى تتيح الفرصة لرجال الادب والفكر من العالم العربى وغيرهم ليناظروا بين آرائهم ويعدلوا اتجاهاتهم ويكملوا معلوماتهم • ولكن هذه الملتقيات التى ليست هى علمية بحتة ولا حلقات ضيقة تجمع بين المختصين لا تكون فائدتها شاملة الا اذا حققت أهدافا معينة أراها ثلاثة •

فاول هذه الاهداف هو الانكباب بالبحث والتنقيب والاشهار على تراث أدبى وفكرى وعلمى يتعلق بما تركه أعلام عاشوا فى هذه الديار ولم يلاقوا ، وإن طبقت شهرتهم الآفاق فى بعض الاحيان ، العناية الكافية لابراز أهم ما جادت به قرائحهم بالصورة التى عرفناها بالنسبة لكتاب المشرق وشعرائهم من أمثال أبى نواس وأبى العتاهية وابن المقفع والجاحظ اذ تبارى فى حصحصة آثارهم أعلام كطه حسين وأحمد أمين والعقاد وغيرهم فترجموا بلغة العصر وروحه آراء هؤلاء وأخاييلهم وصورهم وبعثوا فيهم الحياة وحببوهم الى جمهور القراء •

والهدف الثانى هو أن هذه الملتقيات فرصة لجمهور المثقفين ليشاركوا فى تفهم بعض القضايا الفكرية والادبية والثقافية التى تهم حياتهم اليومية وتاخذ بيدهم من مثل قضية اللغة والقضايا الحضارية والثقافية المشابهة ، خاصة وان هذه القضايا التى تهم تطور المجتمعات وتقدم الامم باقية على مر الدهر تخضع لسنن لا تتبدل إلا فى جزئياتها ، لان الخوف من هذه الملتقيات هو ان تصبح

حلقات من المختصين تهتم بدقائق تصلح لا محالة للدروس الجامعية ويكون مسرحها المخابر ولكنها لا تفيد الجمهور المثقف ٠

والهدف الثالث هو أن تتخذ الدراسات والبحوث احدث الاساليب العصرية فى تقصيها للآراء والافكار فتكون فرصة تبرز فيها للجمهور المثقف ما وصل اليه العلم فى مختلف أنحاء العالم من مناهج البحث وطرق التفكير ٠ ذلك أن ما نخشاه هو أن تبقى أساليب معالجة هذه القضايا هى نفسها التى عرفناها عند طه حسين وغيره من أفذاذ النصف الاول من هذا القرن ٠ لهذا يتعين علينا أن ننتبه الى الموضوع الشائك ونوليه العناية الكافية ٠

ويحق لنا على أساس هذه الأهداف أن نسائل أنفسنا فى كل ملتقى فكرى أو ادبى عن النتائج التى حصلنا عليها ونقول هل أن مهرجان ابن رشيق حقق كل هذه الاهداف ؟ نحن نعتقد أن الدراسات التى يحتويها هذا العدد خدمت بصورة أو بأخرى ما ذكرته ويبقى للقارىء الكريم إبداء رأيه والحكم عليها أولها ؟

البشير بن سلامة

ابن رشيق الاديب الافريقي

بقلم : البشيـر بن سلامـة

كلما عن للدارس أو الباحث أن ينظر في أدب كاتب أو شاعر فانه لا مناص له من ان يتجه الى عناصر ثلاثة بدونها لا يمكن فهم هذا الكاتب او الشاعر على حقيقته . وهذه العناصر الثلاثة في تراكبها وتشابك أجزائها واختلاف معادنها كالجسم لا يستقيم ولا تعمره الحياة الا اذا سلمت أجزاؤه وتفاعل بعضها مع بعض ولم يتخاذل الهيكل العظمي ليشد من أزر العضلات ولم تستنكف الشرايين والعروق من مدها بالدم الصافي النقي .

هذه العناصر الثلاثة هي التي يقوم على أساسها الأثر الأدبي وبفضلها يظهر في صورته البديعة الرائعة المبتكرة وهي لا تتعدى :

- الانغراس في الجذور العميقة للشخصية القومية
- الامتزاج الكامل بروح العصر
- التجاوز المطلق الشامل المفتوح على المستقبل

واذا كان موضوع ندوتنا هذه هو الشعر والنقد الأدبي الذي كان ابن رشيق علما من أعلامه ومقننا له ومساهما مساهمة فعالة بما ألفه من كتب سواء كان العمدة أو قراضة الذهب أو أنموذج الزمان وبما أضافه من نظريات وآراء في هذا الباب فانني أردت أن تكون دراستي لا الشعر والنقد الأدبي عند ابن رشيق ولا الشعر والنقد الأدبي بصفة عامة بل رأيت أن أتحدث عن الاسباب والدوافع التي جعلت ابن رشيق يقف من الشعر والنقد الأدبي تلك المواقف واعتقد أنني سأبقى بهذه الصورة في حدود موضوعنا أي النقد الأدبي .

الجـذور العميقـة

عندما غامرت أنا والأستاذ محمد مزالي ابتداء من سنة 1962 في ترجمة كتاب تاريخ افريقيا الشمالية للمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان لفت انتباهنا ما كانت تزخر به قرطاج من أدباء ومفكرين في الفترة الرومانية واخترنا بضعة

صفحات لنشرها بمجلة الفكر . وكنت عند ذلك واثقا من أن الخصائص التى ضبطها المؤرخ الفرنسى للأدباء الذين عاشوا على أديم هذه الارض أثناء تلك الحقبة لم تنمح تماما من أنفس الأدباء الذين عرفتهم هذه البلاد فيما بعد سواء فى الفترة العربية الاولى او فى عصرنا الحاضر . مما دعانى الى أن أجازف ، على أساس فرضية وأعنون الفصل (1) بالثقافة التونسية فى العهد الرومانى عوضا عن الثقافة الرومانية وأقدم له من ضمن ما قدمت له بهذه العبارات : « ولعل هذا يكون حافزا للبحث فى مزيد من التحليل عن أشهر كتابنا القدامى الذين ربما تزيح لنا دراستهم النقاب عن خصائص باقية فينا وفيهم وان باعد بيننا وبينهم الزمن وفرقت بيننا وبينهم اللغة » .

ومضت السنون ، وكنت أثناءها أجمع ما يثبت هذه الفرضية حتى نشرت سنة 1970 فصلا بمجلة الفكر سميته السنة الأدبية والفكرية (2) وبينت فيه ضرورة الاهتمام بالكتاب الافارقة الذين كتبوا باللاطينية فى الفترة الرومانية من أمثال أبليوس والقديس أغسطينوس ودلنى صديقى الأستاذ محمد فنطر المختص فى علم الآثار على الكتاب الوحيد الذى تحمس للأدباء الافارقة وأعطاهم حقهم وترجمت منه ما يهم خصائصهم وضمنته كتابى : « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » الذى صدر سنة 1971 .

ثم صدر بعد ذلك أى سنة 1972 للدكتور الشاذلى بو يحيى الأستاذ بكلية الآداب كتابان أحدهما عن الحياة الأدبية بافريقية فى عهد بنى زيرى (3) والثانى تحقيق لكتاب قراضة الذهب لابن رشيق (4) وهما يعدان الى جانب ما كتبه من مقالات فى مجالات علمية أو دائرة المعارف الاسلامية أحدث ما كتب عن ابن رشيق موضوعية ومنهجا علميا . وقد أشار الدكتور فى كتابيه الى بعض الخصائص الافريقية الموجودة فى كتابات ابن رشيق ووعد بأن يرجع الى الموضوع بمزيد من التفصيل .

---

(1) مجلة الفكر ، السنة 8 ـ العدد 1 ـ أكتوبر 1962 ص.ص. 16الى 20 .

(2) مجلة الفكر ، السنة 15 ـ العدد 6 مارس 1970 ص.ص. 2 الى 18 .

(3) Chédly Bou Yahia, la vie Littéraire en Ifriquia sou les Zirides. S. T. D. Tunis 1972

(4) ابن رشيق ، قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب ، تحقيق الشاذلى بو يحيى ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1972 .

وفى هذه الدراسة أحببت أن أساهم فى ضبط هذه الخصائص وهو أمر لا يمكن ان ينكره أحد والنقد الأدبى الحديث يثبته اذ المناخ والبيئة لهما تأثير وأى تأثير على ما يكتبه الكاتب وما يقوله الشاعر • غير أن الذى أجازف به وأبسطه للنقاش هو الصلة التى أريد إثباتها بين ميزات الادب الافريقى باللغة العربية والأدب الافريقى باللغة اللاطينية • أعتقد أن هذا هو الجديد بالنسبة لابن رشيق اذ أن الدارسين لآثار أدباء افريقية يعرضون أشد الاعراض عن النظر الى هذا الموضوع فهم يبيحون لأنفسهم الحديث عن فارسية ابن المقفع وتأثره بثقافته ولغته ورومية ابن الرومى وغير ذلك ولا يرضون بربط الصلة بين أدب وجد فى فترة قبل الفتح الاسلامى وازدهر ازدهارا عظيما فى بلادنا • ولست أدرى ما الذى سيضير عروبة ابن رشيق أو الأدب العربى اذا وجدنا وجوه شبه بين ما أنتج هؤلاء وأولئك •

لذا فان فرضيتى الأولى تريد ان تثبت أن مقومات الأدب الافريقى اللاطينى موجود فى الأدب الافريقى العربى وأن السنة الأدبية والفكرية الافريقية ثم بعد ذلك التونسية باقية على مر الدهر •

وعلى كل فانى سأعدد بعض الخصائص التى ذكرها بول مونصو (5) فى كتابه الأفارقة وأحاول المقارنة بين ما امتاز به ابن رشيق عن غيره من الأدباء العرب فى المشرق •

أول ما يمكن ملاحظته هو أن ابن رشيق ولد فى المسيلة او المحمدية (سنة 390 هـ • 1000 ميلادى) وهى قريبة من مدينة مداوروش التى ولد بها قبل ذلك بما يقارب التسعمائة سنة كاتب آخر افريقى ما يزال يقرأ الى الآن وهو أبوليوس •

وان الذى يجمع بين هذين ليس هو مكان الولادة اذ أن ذلك أمر ليس ذا أهمية كبيرة وان كان يلفت الانتباه نظرا الى أن الاثنين طبعا الأدب فى بلادهما وأثرا فيه تأثيرا ملحوظا . وانما المبهت فى الامر هو انه بينما نجد الناس وخاصة المرموقين منهم يحاولون بجميع الطرق فى عهد أبوليوس اخفاء نسبهم البربرى والانتساب الى الغالب فان كاتبنا يصرح بشجاعة أمام الملأ أنه افريقى النسب • وكذلك ابن رشيق الرومى الأصل الذى لا يتحرج عن ذكر ذلك يقول الاستاذ

(5) Paul Monceau, Les Africains, Paris 1894

بو يحيى : « لا بد أن يكون ابن رشيق قد تحلى بكثير من الشجاعة ليؤكد مرتين اثنتين أصله غير العربى » (6) • ولعل لمعترض أن يقول إن هذا وجد عند كتاب وشعراء من المشرق العربى فى اعجابهم بقومهم مثل بشار وابى نواس وابن المقفع ولكن الفرق بين هؤلاء وصاحبينا هو أن المشارقة يعتزون باقوامهم من حيث ثقافتهم وحضارتهم بينما الأفارقة يعتزون بمسقط الرأس وبأرومتهم سواء كانت بربرية أو رومية ويتعلقون مع ذلك شديد التعلق بالحضارة التى انصهروا فيها وهو فارق عظيم يؤكد أن هذه الميزة هى مرتبطة أشد الارتباط بما أكدته من وجود هذه السنة الأدبية والفكرية •

ونلاحظ أيضا خاصية أخرى عند أبوليوس وغيره من الأدباء الافارقة الذين كتبوا باللاطينية وهى الميل الشديد الى المؤلفين الأفارقة دون سواهم تجاوبا وجبلة وهو ما أكده الأستاذ الشاذلى بو يحيى عند ما كتب : « أما طرافة الكتاب [العمدة] وأهميته فيتمثلان فى أن المؤلف يرجع فى أغلب الأحيان الى شيوخه من أمثال القزاز والخشنى والنهشلى وابن السمين وشيوخ أفارقة آخرين لا يذكر أسماءهم ••• » (7)

ونجد أيضا سواء بالنسبة لأبوليوس أو ابن رشيق ثنائية عجيبة ، من جهة تشبث بكل ما هو كلاسيكى فى معاييره ومقاييسه ومن جهة أخرى ميل شديد الى مقاومة الثقافة الكلاسيكية • فابن رشيق « يتمسك بالمقاييس التقليدية » (8) ويعتمد من ناحية أخرى وفى أغلب الاحيان كما يقول هو نفسه فى العمدة على ما توحيه اليه نفسه وما يتأتى له من تجربته الشخصية •

ونجد خاصية اخرى أبرز وأوضح وهى المشاغل التعليمية التى ولع بها الأدباء الأفارقة سواء فى الفترة الرومانية أو العربية • فلقد بقى الأفارقة كما قال بول مونصو (معلمى بلاغة) وهو ما لاحظه باطناب الأستاذ الشاذلى بويحيى عندما بين أن ظاهرة الاهتمام بمسائل التعليم والتأليف ظاهرة افريقية (9) وذكر عدة تآليف فى مواضيع أدبية وغيرها •

---

(6) Chedly Bouyahia, La vie Littéraire en Ifriquia, Page 250

(7) نفس المرجع ص 386

(8) نفس المرجع ص 3II

(9) نفس المرجع ص 26I

ويطول بنا الحديث فى هذا الباب • وأعتقد أن هذه الخصائص التى ذكرتها كافية للتدليل على أن وجوه الشبه موجودة وانه لا يضير فى شىء التأكيد عليها واثبات أن ما سبق الحضارة العربية الاسلامية من حضارات أخرى قد أثرت على سكان هذه البلاد وطبعتهم بخصائص لا يمكن أن تنمحى وهو دليل آخر على أن حلقات الحضارة بالنسبة الى بلادنا متماسكة وان انكارها لا يعنى أنها غير موجودة ولو تتبعنا آثار أدبائنا المعاصرين من أمثال الشابى والطاهر الحداد وغيرهما لوجدنا ما يثبت بقاء هذه الخصائص •

أما عن لغة ابن رشيق وأسلوبه فاننى أذكر أن أستاذا من أساتذتنا فى المدرسة الصادقية كان لا يجد تبريرا لنوعية هذه اللغة الا أن والد ابن رشيق كان صائغا وتعلم ابنه هذه الحرفة ولهذا كانت كتابة ابن رشيق « بحث فنى يصل فيه الجهد البين الى الجمال » (I0) وهو الى ذلك « شاعر قادر على تطبيق نظريات صناعة الشعر العربية وقواعدها التى عرضها بمهارة فى كتابه العمدة » (II) • أليس من الافضل أن نقارن هذه الكتابة بما عرف عن أبوليوس وأصبح خاصية من خاصياته كغيره من الافارقة أعنى ما يدعى بالتأنق فى الكتابة (Stylisme) وقد أطنب بول منصو فى التعريف بهذه الظاهرة وحددها بصورة واضحة فى كتابه •

هذه بعض الخصائص التى تبين مدى ارتباط ابن رشيق بأرضه وانغراس أصوله فيما سميته بالسنة الأدبية والفكرية ولو لا ذلك لما أعطى للعروبة هذا الأدب النوعى الذى لا يمكن لأى كان من المشارقة أن يقول فى شأنه « بضاعتنا ردت الينا » I2 • ولعل هذه الظاهرة هى نفسها التى مكنت الأدب والفكر العربيين من الاثراء بما انتجته قرائح قدرت على أن تنصهر فى الثقافة العربية الاسلامية انصهارا • وهى اذ ذاك الثقافة المطبوعة بروح العصر وكانت فى مقدمة جميع الثقافات طيلة القرون العديدة •

(I0) Eneyclopédie de l'Islam Tome III. N E. Page 958

(II) نفس المرجع ص 928

(I2) هى قوله لأحد الوزراء الأدباء علق بها عند قراءة كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه •

الامتـزاج بـروح العصـر

ولا يخفى ان الامتزاج بروح العصر بالنسبة لابن رشيـق الذى ولـد فى المسيلة من أصل رومى هو ان ينصهر قبل كل شىء مع العرب الذين حطوا فى تلك المنطقة وهم من تميم • وليس له ، مجاراة مع روح العصر ، الا أن يعمل بما سميته فى كتابى : « الشخصية التونسية » (13) بروح المؤالفة والتعاون ويقتضى من رجل كابن رشيق الذى أحس بأن الغلبة للعنصر العربى أن يتعلم لغة الغالب ويحذقها ليتمكن من الظفر بمكانه فى الحياة الكريمة وليرتقى فى سلم الرفعة الاجتماعية •

ولكنه لن يظفر بما يريد اذا هو لم يفعل مثل أبوليوس وغيره من شيوخه أى لم ينتقل الى المدينة • والمدينة هى وحدها التى تتمازج فيها أنماط الحيـاة لتفرز نمطا يتماشى مع البيئة الجديدة العصريـة فى معاملاتهـا الاقتصاديـة والاجتماعية والثقافية • وليس للقيروان على الأقل فى أول أمرها الا أن تتشبه بالعواصم العربية فى المشرق وخاصة بغداد فعملت جاهدة على أن تلحق بركب الحضارة مثلما فعلت قرطاج سابقا مع صور وفاقتها ، ومع رومة فنافستها • وكان للقيروان مثل بغداد فقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها وكان لها أيضا مصانعها وأراضيها المستغلة كأحدث ما يكون الاستغلال • وكان مجتمع القيروان بعامته وخاصته يتمتع بحضارة لا تقل عن حضارة بغداد •

وجد ابن رشيق فى القيروان وفى قصور الأمراء ما يجعله يحيا حياة عصره ويفكر تفكير أهل العصر ويكتب ويقول الشعر على أساس أحدث ما ظهـر فى علوم عصره • ولكن روح العصر كانت فى ذلك الوقت مطبوعة بطابع عربـى صرف فيه مجال للطرافة لا محالة سنحددها فيما بعد ولكنها طرافة لن تؤدى بابن رشيق الى أن يكون أدبه كأدب أبوليوس تماما • فهو لـن يكـون مثـل أبوليوس ذا خيال خصب ولن يكون له ذاك الشعور الحاد بالطبيعة كما استرده فيما بعد أبو القاسم الشابى ولن تكون له شدة البأس وحدة الطبع المؤديـة الى العنف والشخصية الممتازة ، وهو المتصل بالامير ، مثلما كـان عليـه فقهـاء القيروان وهو أكثر من ذلك لن تكون له حرية أبوليوس الذى تصرف فى اللغة

---

(13) البشير بن سلامة ، الشخصية التونسية ، خصائصها ومقوماتها ، نشر عبد الكريم بن عبد الله ، تونس 1974

اللاطينية تصرفا مطلقا وأدخل فيها الكلمات العامية والتراكيب الجديدة ولوى عنق اللغة الكلاسيكية ان لم يدقه بل كان عليه أن يحافظ على ما للغة القرآن من جلال وقداسة · وروح العصر تفرض آنذاك ان يكون كل أديب عارفا بها ، متقنا لها ملما بأسرارها وخباياها ولهذا فان ابـن رشيـق لم يشـذ عصـره واضطرته الثقافة العربية الى أن يعدل من الخصائص التى كان من الممكـن أن يتحلى بها كغيره من الأدباء الأفارقة ·

ولكن روح العصر فى القيروان ليست هذا فقط بل هى أيضا ايقاع الحيـاة ودفقها فى المجتمع القيروانى · هى النظرة الى الابعاد الى الزمن الاشكال الى المادة الى الاصباغ والالوان والاضواء والانغام · هى هذا كله الذى يصور لنـا الحياة اليومية فى دقائقها ومستسراتها فى حركتها وسكونهـا ، وتشنجهـا وانبساطها ، أين هذا كله ؟ وما هى الكتب التى حاولت ان تصور هذه الناحية من بيئة القيروان سواء كانت القديمة منها او الجديدة ؟

من الصعب جدا أن نصل الى التعرف على هذه الدقائق · فماذا بقـى مـن القيروان بعد خرابها من طرف بنى هلال وسليم ؟ ما هو الفن المعمارى الذى تمتاز به فى ذلك العصر ؟ ما هى أشكاله فى حنايا أقواسه وتيجـان أعمدتـه وتقسيم بيوته وحجم جدرانه ؟ هل يمكن أن نضبط لنا ، ان بقى هذا كله ، ايقاع الحياة فى مجتمع القيروان ونسقها فى تلك الفترة بالذات ؟ ماذا بقى من الأغانى الشعبية والموسيقى التى يمكن بها أن نستشف أذواق أهل القيروان ودفق الحياة فيهم وتوقيع نشاطهم بين الحركـة والسكـون ؟ من من الكتـاب حدثنا عن صخب الاسواق ودأب الناس فى قضاء شؤونهم واختلاف الليـل والنهار فى القيروان وضواحيها بالصورة التى نضبط بهـا مـلامح الانسـان القيروانى فنتعرف على نفسيته ومنازعه ودخائله كما هى فى بساطتها وعفويتها، فى رقتها وشدتها ، فى انطلاقها وانبساطها ؟

لعل هذا ليس بعزيز على أهل الاختصاص ليضبطوا ما أسميه بروح العصر أى الحياة فى درجة حدتها ومفعولها فى النفوس ، وتناغمها وتنافرها وشحنتها الروحية والمادية ونتوئها ولطفها وأصباغها ونسبها ، ونظامها فى انخرامـه تارة واصلاحه تارة اخرى فى توازنه وتناسقه واعتداله أو توتـره وتنافـره وتطرفه ؟ ·

أين يمكن أن نجد هذا ؟ هل فى كتابة الأدباء أو شعر الشعراء باللغة العربية الفصحى ؟ والحال أن أغلبهم يتقمص فى أدبه شخصية مصطنعـة لا يمكن أن

تعبر حتى عن دفائنه الحقيقية ونوازعه الأصلية فما بالك بتعبيره عن روح العصر فى دخائلها ونبضات الحياة فيها • انه لم ينج من هذه الثنائية الا القلة القليلة • وابن رشيق من الناجين •

ولكن هناك نوعا آخر من الفن يمكن الاعتماد عليه فى تصوير روح العصر فى قيروان بنى زيرى وهو الأدب الشعبى بشعره وأمثاله • ولكن ماذا بقى من كل ذلك ؟ لا شيء حسب ما أعلمه فى امكانه أن يبرز هذه الناحية من دراستنا •

وأحسن من هذا كله والذى فى ميسوره أن يعطينا صورة صادقة عن روح العصر هى اللغة العامية المهذبة أو غير المهذبة ولكن ماذا بقى منها • نحن نعلم أن « لغة البرجوازية كانت لغة كلام ، تفاوت التغيير فيها ، ولكن ليس لنا أنموذج يعرفنا بها بصورة عملية • كما اننا لا نعرف شيئا عن لغة العامة سواء فى الأرياف أو المدن ، ورغم سكوت أغلب المصادر فى هذا الشأن فانه ليس من شك فى أن « لغة حديث ما » كانت تجرى على الألسن فى افريقية فى القرنين الرابع والخامس الهجرى » • (14)

لماذا أبحث فى العامية والحال اننى لا أتعصب لها ولا أعتبرها قادرة على السمو بل اننى أتعصب للفصحى ما دامت متجاوبة مع روح العصر صادقة فى التعبير عن نفس الحياة فى البيئة التى تنبع منها •

ولهذا أريد أن أعرف مدى ما وصل اليه ابن رشيق فى لغته وأسلوبه من اعتبار لدفق الحياة الحية اليومية فى المجتمع القيروانى • أريد أن أعرف ما كانت عليه اللغة العامية فى أسلوبها خاصة ، وهو انصهار بين الألفاظ والنحو والجملة فى تراكيبها وهو الى ذلك « النظام والحركة اللذين بهما تنتظم الافكار » كما قال بوفون (Buffon) فالنظام فى منطق الافكار وترابطها وعمقها وفى درجة كثافتها وهيئتها ، وأما الحركة ففى الحياة التى نبعثها فى هذه الافكار والتشكل الذى نعطيه لها بالخيال والتزويق والرونق • وخلاصة القول فان الذى يعنينى من كل هذا ليعبر حقيقة عن روح العصر هو استشفاف ايقاع اللغة العامية ونبضاتها وشحنتها الصوتية لأنها أصدق من يعرفنا بملامح الشخصية فى عفويتها وطبيعتها ولأنها لم تنحن مثل الفصحى أمام قدرة الافذاذ من الحلاقين

(14) نفس المرجع المذكور ، ص.225 (الشاذلى بو يحيى)•

فى تجاوزهم لحدودها الضيقة واعمالهم ضراوة الفن فى هياكلها بل بقيت جماعية مرآة للجمهور ٠

التجاوز المستقبلي

كل هذا لاصدع **بالفرضية الثانية** فى مجال النظرية اللغوية وهى أن **كل عبقرى من عباقرة العربية الفصحى ـ بز غيره فى ميدان الخلق الادبى والفكرى مشرقيا كان او مغربيا ـ لم يخلد في مجال الادب ولم يكتب لآثاره البقاء ولم تكن اضافته اللغوية ذات بال الا لأنه عرف كيف يضمن لغة الخلق عنده ما فى لغته العامية من ايقاعات ونبضات ونبرات وشحنة موسيقية من دون ان يدخل الضيم على الفصحى ويمس بعبقريتها ٠**

وقد كنت لمحت الى هذا عندما كتبت عن تطور الجملة عند المولدين وخاصة ابن المقفع (15) وأكدت النظرية بالامثلة فى دراسة قدمتها أخيرا بمناسبة الذكرى الاولى لوفاة طه حسين (16) التى التأمت أخيرا بالقاهرة ٠

وعلى كل فاننى سأدعمها بأكثر وضوح وعلمية عندما سأدرس فى مناسبة أخرى من الناحية اللغوية بعض النابغين من الادباء التونسيين المعاصرين من أمثال الشابى وأبين العلاقة الموجودة بين اللغة العامية التونسية ولغة الخلق الفصيحة التى يتجاوز بها صاحبها الانماط المعروفة والاساليب المطروقة والتى سميتها اللغة التجاوز ٠ (17)

واذا كان الجاحظ كتب منذ القديم عن اللغات انه « ليس ينبغى للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس فى طاقتها ويسوم النفوس ما ليس فى جبلتها » (18)

---

(15) البشير بن سلامة ، تطور الجملة العربية عند المولدين ، مجلة الفكر ، السنة 17 ، العدد 1 ، أكتوبر 1971 ، ص.ص 33 — 37 ٠

(16) انظر مجلة الفكر ، عدد أفريل 1975 ٠

(17) راجع الفصل الثالث من الباب الثانى بعنوان الأسلوب واللغة التجاوز من كتاب اللغة العربية ومشاكل الكتابة ، تأليف البشير بن سلامة ، ص.ص 119 ـ 128 ٠

(18) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج 6 ص 8 و 9 ٠

فان طاقة اللغة العربية وخاصيتها اذا اردنا هي كامنة في أنها قادرة على احتضان كل ما هو شعبي لان أصلها شعبي قبل كل شيء ويمكن أن نعمم رأى الدكتور الشاذلي بويحيى ونطلقه على العربية بصورة عامة عندما ينسب سعة الفن في بعض حالاتها الى « كثرة استعمال الاستعارة في المفردات اللغوية لان أصل اللغة العربية شعبي ولانها تقننت نهائيا في مرحلة أولية من نشأتها نسبيا » (19) • ولهذا يمكن القول بان ما في طاقة اللغة العربية هو قدرتها على احتضان اللغات العامية التي انبثقت في الواقع منها وصهرتها الحياة وعمل فيها الزمن ولكنها بفضل معجزة كامنة فيها استطاعت ان تستوعب من جديد روح اللهجات العامية أو بالاحرى ان يتوصل العباقرة من ايجاد الكيمياء التأليفية بين الفرع والاصل بين العامية والفصحى بين لغة الكلام ولغة الكتابة •

وليس من الصعب أن نفهم لماذا لم يكتب العباقرة من أمثال ابن خلدون وابن رشيق وطه حسين والشابي باللهجة العامية بينما كتب من ربما لن يكتب له الخلود بالفصحى والعامية اذ هو في كلتا الحالتين يتقمص شخصية أخرى ويعتمد على نسق فكرى ولغوى خاص •

بقى أن نبحث في جملة ابن رشيق عن آثار لغته العامية ونحن لا نعرفها • ما العمل اذن ؟ هل نحاول أن نظفر بشيء من التأنق في العبارة الذى عرفناه عند أبوليوس وهى لغة مهذبة مخدومة ولكنها في الواقع كما ذكر « بول مونصو » تعبر حقيقة عن الروح الشعبية لانها طورت اللاطينية على أساس طبيعة الافارقة •

فالذى يصلح لأبوليوس مثلا ليس هو « السير المنظم للتحليل المنطقى ولا الايقاعات الجميلة ولا انسجام جملة بل هى الخطرات القاطعة ، والكلمات الجديدة الملونة والتراكيب الجريئة ، وكل ما هو فجئى أخاذ بارز • فهى بالنسبة اليه ثورة كاملة لا في الاسلوب بل في اللغة نفسها ••• فليس هناك أكثر ذاتية في الظاهر من هذا الاسلوب المتعثر الغنى بالالفاظ والالوان الطافر بالخواطر الحية والصور والنزوات الواقعية : هو أسلوب فنان عصبى عبد لخياله متفاوت في القيمة ، غريب ، جبار » • (20)

---

(19) نفس المرجع ص.313 (الشاذلي بويحيى) •

(20) البشير بن سلامة ، اللغة العربية ومشاكل الكتابة ، الدار التونسية للنشر ، ص 152 — 153 (عن بول مونصو) •

فهلا ينطبق هذا القول على هذه الفقرة من العمدة : « ۰۰ ألا ترى أن الــدر ــ وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس ، وبه يشبه ــ اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ، ومن اجله انتخب ، وان كان أعلى قدرا وأغلى ثمنا ، فاذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ اذا كان منثورا تبدد في الاسماع وتدحـرج عن الطباع ولم تستقر منه الا المفرطة في اللفظ وان كانت أجمله والواحدة من الألف وعسى أن لا تكون أفضله فان كانت هي اليتيمة المعروفـة والفريـدة الموصوفة فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به ولا ينظر اليه ، فاذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية ، تالفت أشتاته وازدوجت فرائده وبناته واتخذه اللابس جمالا ، والمدخر مالا فصار قرطة الاذان وقلائد الاعناق وأماني النفوس وأكاليل الرؤوس يقلب بالالسن ويخبأ في القلوب مصونـا باللب ، ممنوعا من السرقة والغصب ۰ »

لست في حاجة الى أن أؤكد أن ما ذكرته فيما يخص لغة أبوليوس وأسلوبه ينطبق تمام الانطباق على لغة ابن رشيق وأسلوبه ۰ وفي واقع الامر فان هذه الفرضية على جدتها والمجازفة فيها تحتاج الى أدلة كثيرة ولكن رجائـي هو ألا ترفض بتاتا بل توضع على محك التجربة وليس أيسر لمعرفـة صحتهـا أو بطلانها من تطبيقها على الأدب الحديث لان اللغة العامية ماثلة يمكـن درسهـا وأساليب البحث والاختبار العصرية مواتية لضبـط خصائصهـا الصوتيـة والايقاعية والنبضية على شرط أن يستند في المقارنـة عـلى أدب العباقـرة المحدثين من شعراء وكتاب ۰

وهكذا فانه ليس هناك نجاة للفصحى الا في هذه الطريقة وأكاد أقول أن هذه الخاصية أي الاعتماد على موسيقى العامية هي من عبقرية اللغة العربية وهو سبب من أسباب بقائها لأن ذلك يعد تجاوزا للأنماط والقوالب القديمة الى ما يفرضه مستقبل الشعوب من تفجير لطاقات اللغة التي هي أساس التفكير البشري في جميع مجالات الحياة أي الحضارة ۰

ب۰ ب۰ س۰

تحية إلى ابن رشيق

شعر : محمد الحريري
(سوريا)

إيمـاض فـكرك حتّى اليوم يحتدم … على زجاجة روحي بات يضطرم
عروقُنا خاطفاتٌ نورَه شغفـــا … من أول اللمح ، حين اللمح يستلم
مازال في الـكتب بعض من سريرته … تزهو الحَروف بها مجدا وتعتصم
علّقت بالأفق من روحي كواكبه … فما غشت افق روحي بعدها ظلم
على (مسيلة) هلّ الطفل فارتعشت … على مراقده اليقظـــات والحـلم
في كفه ريشه صغرى وفي فمـه … نجوى على شفة التاريخ ترتسم
قد كحَّلتْ ناظريه في لفائفـــه … مراود في جفون السحر تنتظم
ورفّ منه ذكاء راح يمطـــــره … من بارق اللمح ما تزكو به الديَم
(القيروان) سقته من مـراشفها … حتى تدلى عليه الناضج التَّمِم
فيها عباقرة من كل متَّقِد … لهم على ابن رشيق في الهدى سيم
سرٌّ ، وما السرُّ ، فُضّيه ولا تهني … يا ريشة لعباب الدهر تقتحـــم
يا ريشة ابن رشيق من أناملــه … أرضعت طفل خلـود فانتشت حلم
من حين ما غطّها في حبره برقت … لنا الخواطر حتى أمطر الكـلم
غيوثه لم تزل تهمـــي منضـــرة … لنا مذاقا بنبل الشمـس يتَّســم
أقبّل الريشة العصماء في يـده … كما يقبِّل أزهار الشهيـد فـــم
إني لألمحـه خلف الزمان عـلى … أريـكة الجهد يضنى وهو يبتسم
الليل بين يديه واجف هلـع … يُطوى على عينه اليقظى وينحطم
أزاح أنجمـه وانسـلّ مختطفـا … أفـكاره ، فمراياها هي النُّجـم
وغاية النجم لو نـدرى ولهفتـه … أن يستنير بما يسخو به القـلم

وأنمل ابن رشيق في غزارتها … ترقرق الكتب والايام تستلم
في غرفة الدهر جاث خلف منضدة … يخط لا تعبٌ يشكوه ، لا سأم
وشمعة دونه خرساء صابرة … الشمس تغفو بها والبدر ينكتم
تنير للكتب ان تهدى مسالكها … الى الخمائل حيث الجنى يزدحم
في كل سفر شموخ من مكاشفة … فهل على كل سفر يشمخ الهرم
وخير ما ضاء في قنديله أدب … له على كل حس مرهف ضرم
النقد أعلى به ميزانه ألّقا … في كفتيه يزان الدر والتوم
في (عمدة) ، شاد فيها صرح مملكة … من جوهر الادب السامي لها دعم
لفظ ومعنى على آفاقها اختلفا … أيٌ يصيح وأيٌ منهما يجم
إن أخرس اللفظ فالمعنى وان شردت … ابعاده فهو كاب هامد رمم
أو أطفأت وقدة المعنى وعاش على … رمادها اللفظ ، ماذا ينفع الأيم
كلاهما واحد فليرقصا أبدا … على العطاء معا ولْينتَشِ النغم
والأذن للروح أقداح فإن قبلت … أسكوبها الروح فهو الرائق الشبم
ما خلّد البحتريَ اللفظ منسجما … ولا حبا المتنبي مجده الحكم
لكنما يهب التخليد مستعرا … شعر على اللفظ والمعنى له قمم
شعر يجل عن التمحيص ريقّه … ولا تردد فيه لا ، ولا نعم
لكنه ومضة سحرية خطفت … ما يكنز القلب او ما يخبيء الفهم
والشعر لص شريف الخطف راحته … جلت فما نالها القانون والحُكم
ولن يهاب سجونا في مطاوحه … فسجنه وان تمادى الروح والرحم
والصبح يا ابن رشيق طالع أبدا … من دفتي كتب قد حفها العظم
النور في الحبر لا في الشمس مولده … ان الدواة لبحر بالسنى عرم
كم أبحر الفكر فيها ضد سفرته … وظل يبحر والأمواج تلتطم
على سفينته تلهو معربدة … حضارة ببريق الفكر تلتثم
حضارة هي تاج الكون ما برحت … على يواقيتها تستشرف الأمم

لها على شرف الحمراء ، زاهرة
ظلت على وهجها مادام يشعلها
هل كنت يا ابن رشيق ان دنا سفر
امامك الارض أرض العرب واسعة
ما بالنا اليوم أشياعا تمزقنا
مضيعين ونور الضاد ترشدنا
يجتاحنا طامع من كل ناحية
فشق يا ابن رشيق من « صقلية »
وضيء على روحنا ، في راحة قلم

وفي دمشق وفي بغداد مبتسم
على العروبة شعب ليس ينفصم
تبدي جواز رحيل حين تقتحم
لاحد يقسمها تربا ولا تخم
يد الشتات فلا شمل ولا شيم
معثرين ولا تشكو لنا قدم
ويستبي ارضنا في قدسنا نهم
قبرا وأشرق علينا ، لفنا الغسم
واحدب على جرحنا ، في راحة علم

م. ح.

تعريف بكتاب «الانموذج» لابن رشيق

بقلم : محمد العروسى المطوى

عرف أبو على الحسن بن رشيق بالنقد الادبى فى كتب ثلاثة هى : العمدة ـ قراضة الذهب ـ الأنموذج . لكن شهرته فى ذلك كانت تتمثل خاصة فى كتاب « العمدة » ثم فى كتاب « قراضة الذهب » . ويعود ذلك الى أن الكتابين المذكورين كتب لهما بقاء الذات والرواج بينما كتاب « الأنموذج » لم يكتب له سوى أنقال عنه أثبتتها بعض المصادر المشرقية والمغربية مما سنعرض له بشىء من التفصيل فيما بعد . وكان كتاب « العمدة » أكثر تلك الكتب حظوة عند القدماء فتناولوه بالشرح أو الاختصار ، أو الاستشهاد والذكر نظرا لصلته المتينة بالنقد الادبى ، كما طبع عدة مرات فى العصر الحديث . ولو أن حظه من التحقيق العلمى فى تلك الطبعات كان قليلا جدا مما يدعو الى الأمل بأن يحصل له ذلك يوما ما مثلما حصل لكتاب « قراضة الذهب » التى حققها أخيرا الاستاذ الشاذلى بويحيى ونشرتها الشركة التونسية للتوزيع سنة 1972 .

اسم الكتاب :

ولعل أول ما يمكن أن نتناول به الحديث عن « الأنموذج » هو اسم الكتاب إذ نجده تارة باسم « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » ومرة باسم « أنموذج الزمان » أو باسم « الأنموذج » . وقد ادعى البعض أن الاطلاق الصحيح هو « النموذج » حتى أصلح الاسم على تلك الصيغة (1) ولكن

---

(1) ذكر ذلك فى هامش إرشاد الأريب لياقوت طبع دار المأمون (8 : 112) وهامش كشف الظنون (1 : 184) تبعا لما قاله صاحب القاموس من أنه معرب (نموذه) وأن « الأنموذج » لحن . وعقب عليه الزبيدى بقوله : كذا قال الصاغانى فى التكملة وتبعه المصنف . قال شيخنا النواجى فى تذكرته : هذه دعوى لا تقوم عليها حجة . فما زالت العلماء قديما وحديثا يستعملون هذا اللفظ (الأنموذج) من غير نكير حتى أن الزمخشرى وهو من أئمة اللغة سمى كتابه فى النحو « الأنموذج »

النص الشعرى الذى أثبته ابن رشيق نفسه لعبد الرزاق بن على النحوى يؤكد أن اللفظ الذى اختاره ابن رشيق لكتابه هو « الأنموذج » لا النموذج · فقد قال الشاعر المذكور مادحا لابن رشيق :

ومطرزا حلل البلاغة معجزا	كل الورى ببلاغة الأنموذج
فكأنه للسمع لفظ احبة	وكأنه للعين روض بنفسج(2)

أما اسم الكتاب كاملا فنرجح أنه « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » وأن التسميات الاخرى إنما كانت على سبيل الاختصار والذكر ، وهو أمر شائع عند القدامى والمحدثين عندما يذكرون الكتب خاصة فى مجال الاستشهاد أو مجرد الذكر · فيكتفى مثلا — ابن بسام (3) وابن خلكان (4) بلفظة الأنموذج · بينما نجد — مثلا — ابن الابار (5) يضيف الى لفظة « الأنموذج » « شعراء القيروان » · وكذلك السيوطى فى البغية (6) · ويقول عنه الصفدى : إنه أنموذج الشعراء (7) ·

وإذا اتبعنا أسلوب ابن رشيق فى تسمية كتاب « الروضة الموشية فى شعراء المهدية » وكتاب « قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب » نرجح أن الاسم الصحيح للكتاب هو « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » · مع ملاحظة أن لفظة « القيروان » لا تعنى المدينة فقط بقدر ما تعنى عاصمة إفريقية التى كانت منتجع الشعراء إذذاك · وهو انتجاع يمتد الى خارج

وكذلك الحسن بن رشيق القيروانى وهو إمام المغرب فى اللغة سمى به كتابه فى صناعة الادب · وكذلك فى شفاء الغليل نقل عبارة المصباح وأنكر على من ادعى فيه اللحن أو مثله عبارة المغرب للناصر بن عبد السيد المطرزى شارح المقامات (عن تاج العروس) ·

(2) الوافى للصفدى (16 : ورقة 258/أ) ·

(3) الذخيرة لابن بسام (مجلد 4 قسم م مخطوط) ·

(4) الوفيات لابن خلكان (2 : 85) ·

(5) المقتضب من تحفة القادم للبلقينى ·

(6) بغية الوعاة للسيوطى (1 : 504) ·

(7) الوافى للصفدى (10 : 231/أ مخطوط) ·

حدود إفريقية • والمطلع على ما ورد فى « الأنموذج » من الشعراء يجد أن الكثير منهم غير قيروانى الأصل بما فى ذلك ابن رشيق نفسه •

وإذا كان كشف الظنون لحاجى خليفة يحمل فى عنوانه التنصيص على أسماء الكتب فاننا نجد هذا الكشف يضع اسم « الأنموذج » (موضوع البحث) مرة فى باب طبقات الشعراء ويسميه « الأنموذج فى شعراء القيروان » (8أ) ونجده فى الترتيب الأبجدى يذكر كتابين لابن رشيق الاول باسم « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » لأبى على حسن الأزدى المهدوى ، والثانى « الأنموذج فى اللغة » لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ست وخمسين وأربعمائة (8ب) على معنى ان لابن رشيق كتابين اثنين بهذا الاسم : أحدهما فى طبقات الشعراء والآخر فى اللغة مما اعتبره البعض من أوهام المتأخرين (9) •

متى ألف الأنموذج ؟

لم يعرف بالضبط متى ألف ابن رشيق كتاب « الأنموذج » • ولهذا حاول بعض الدارسين تحديد زمن تأليفه اعتمادا على شىء من الاستنتاج • وبما أن مقدمة الكتاب غير معروفة لحد الآن فان ذلك مما زاد الغموض فى هذه النقطة • ويكاد يكون هنالك إجماع من أولائك الدارسين على أنه ألفه بعد كتاب « العمدة » لاشارة وردت فيه حملت على أنها تعنى كتاب الأنموذج • وهذه الاشارة هى العبارة التى جاءت فى العمدة فى باب التكسب بالشعر • ونصها : « ••• وهذا باب قد احتذاه الكتاب فى زماننا إلا القليل ، وقوم من شعراء وقتنا أنا ذاكرهم فى كتاب غير هذا إن شاء الله ••• » (10) فقد اعتبر الميمنى (11) وتابعه عبد الرحمان ياغى (12) أنه تبشير بالأنموذج وعزم على تأليفه • ويروى الشاذلى بويحيى أن ابن

(8أ) كشف الظنون (1 : 1103) •

(8ب) كشف الظنون (1 : 184 و 185) والملاحظ أن حاجى خليفة لما ذكر الأنموذج فى باب طبقات الشعراء ذكر أنه توفى سنة 463هـ• وهى الرواية البعيدة الاحتمال •

(9) هامش إرشاد الأريب طبع دار المأمون (8 : 117) •

(10) العمدة (1 : 67) •

(11) ابن رشيق للميمنى (8) •

(12) حياة القيروان لعبد الرحمان ياغى (375) •

رشيق ألف أنموذجه حوالى سنة 420 (1029 م) (13) • إلا أن هذا التقدير قد يعارضه ما جاء فى النصوص المنقولة عن الآنموذج عندما ينص ابن رشيق ـ حسب تلك النصوص المنقولة ـ على أن وفاة هذا الشاعر أو ذاك كانت بعد ذلك التاريخ • ومن هذا ما ذكره عن وفاة عبد الله بن محمد البغدادى أنه مات بالحضرة سنة احدى وعشرين وأربعمائة (14) •

ومهما يكن فما نحسب أن ذكر السنوات يمكن أن يعتبر ـ فى مثل ذلك ـ تحديدا لا يقبل جدلا ما دمنا لم نجد نصا لصاحب الكتاب أنه ألف الكتاب أو انتهى منه سنة كذا • إذ لا مانع أن يضيف المؤلف سنة الوفاة لأى شاعر كتب عنه قبل وفاته ، أو علم سنة وفاته بعد الكتابة عنه ، خاصة أن ذلك العصر لم تكن فيه الطباعة التى قد تحول ـ أحيانا ـ بين الكتاب وصاحبه عن إعادة النظر فيه • كما نفقد فى هذا المجال النسخ المتعددة التى يمكن اعتبار إحداها قد أخذت عن المؤلف قبل أن يضيف إليه أشياء جديدة عن نسخة اعتبرت عنده نهائية •

ولعل الاهم من تحديد زمن التأليف كتاب الأنموذج هو ما اعتبره بعض الدارسين أنه جاء بعد كتاب العمدة ليكون مجال تطبيق لقواعد النقد التى سجلها ابن رشيق فى كتاب العمدة وهذا ما انتهى إليه بعض الدارسين المعاصرين فقد اعتبر ابن رشيق « كأنه فى أنموذجه إنما كان يطبق خلاصة تجاربه فى النقد ، فتناول شعراء عصره فى كتابه الأنموذج بدراية وذوق ومرانة كافية » (5) إذ « حاول فى دراسته لشعراء القيروان فى كتاب الأنموذج أن يطبق بعض القواعد النقدية التى حشدها فى كتاب العمدة » (16) وقد وجد أسلوب ابن رشيق فى النقد الأدبى مجال التطبيق فى كتابه « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » (17) •

الدافع على تأليف الكتاب :

مرة أخرى نذكر أن فقدنا لمقدمة كتاب الأنموذج تجعلنا نتساءل عن السبب الذى دعا ابن رشيق الى تأليف كتابه المذكور • خاصة أن الكثير من كتبه

---

(13) حوليات الجامعة التونسية سنة 1964 (الشاذلى بويحيى) وكذلك الحياة الأدبية فى إفريقية (110) •
(14) الوافى (17 : 133/أ) •
(15) عبد الرحمان ياغى (452) •
(16) احسان عباس « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » ص 444 •
(17) الشاذلى بويحيى : الحياة الادبية فى إفريقية ص 110 •

ورسائله الاخرى عرفت أسباب تأليفها أو لمن ألفت فاذا كان البعض من رسائله دعاه الى تأليفها الجدل الادبى الذى كان بينه وبين قرينه ومعاصره ابن شرف (18) وأن « قراضة الذهب » كان الداعى الى تأليفها استحسان أبى على اللواتى لبيتين من مرثية ابن رشيق للأمير أبى منصور الصنهاجي (19) فان كتاب الأنموذج لم نجد التنصيص على سبب تأليفه · لكننا نرجح أن ذلك يعود الى سببين : 1) الأول أن ابن رشيق كان يعمل على تدارك النقص الملحوظ فى كتب طبقات شعراء إفريقية خاصة أن هذا النوع من الكتب توفر فى المشرق سواء للشعراء القدامى أو المحدثين · ولا ينكر أن المغاربة كانوا يحتذون المشارقة فى كثير من الميادين وكانوا مطلعين على أغلب ما ينتجون ، جاعلين منهم محل الاحتذاء والاقتداء ، ومضرب التمثيل والمشاهدة · وسوف نرى فيما بعد عينات من ذلك فى كتاب الأنموذج نفسه · أما السبب الثانى فيتصل بموقف شخصى لابن رشيق يمكن أن نستروح منه دافعا ذاتيا إلى تأليف كتابه المذكور ، فقد جاء فى الترجمة التى خصصها ابن رشيق لأبى إسحاق ابراهيم الحصرى ما يلى : « ·· وله تآليف جيدة فى ملح الشعر والخبر · وقد كان أخذ فى عمل « طبقات الشعراء » على رتب الأسنان · وكنت أصغر القوم سنا فصنعت :

رفقا أبا إسحاق بالعالم حصلت فى أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فضل إبليس على آدم

فلما بلغه البيتان أمسك عنه · واعتذر · ومات وقد سد عليه باب الفكر فيه · ولم يصنع شيئا (20) ·

---

(18) مثل رسائل ساجور الكلب ـ ونجح الطلب ـ وقطع الأنفاس ـ ورفع الاشكال ودفع المحال ·

(19) قراضة الذهب (12) ·

(20) ارشاد الاريب لياقوت (2 : 96 ، 97) ·

ويستنتج من هذا النص أن فكرة تأليف « طبقات الشعراء » عند ابن رشيق كان مسبوقا بها من أبى إسحاق الحصرى ٠ وأن موقف ابن رشيق من أسلوب تأليف تلك الطبقات كان سببا فى عدول أبى إسحاق الحصـرى عن تأليـف كتابه ٠ ولهذا حاول ابن رشيق أن « يكفـر » عن ذلك المـوقف ، وأن يؤلف كتابه المذكور (الأنموذج) فى طبقات الشعراء على غير الأسلوب الذى كان يعتزمه أبو إسحاق الحصرى من قبلـه ٠ ولا نحسب أن هنـالك ما يمنع أن يكون هذا الاستنتاج مسايرا للسبب الأصلى لتأليف كتاب « الأنمـوذج » أو أن يكون محرضاً على تأليفه على الأقل ٠

محتـوى الأنمـوذج :

« ٠٠ الفن الذى أفاض ابن رشيق فيه ، وأطلق للقلم عنـانه يتمثـل فى كتاب « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » ، وهذا الاسـم ينبـىء على مـا احتوى عليه هذا التأليف الذى هو أجمل وأشمل ما كتب الكاتبون فى تراجم أدباء إفريقية » ٠ هذا ما قاله المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب فى « بساط العقيق » (21) ٠ ولفظة « الزمان » فى عنوان الكتـاب تعنى أن ابن رشيـق خصص كتابه للشعراء والأدباء المعاصرين لعهده ، والذين كان يعج بهم بلاط المعز بن باديس الصنهاجى إذ كان بلاطه منتجع الأدبـاء وكعبـة القصـاد والشعراء (22) وقد احتوى هذا البلاط على أكثر من مائة شاعر حسب تقدير حسن حسنى عبد الوهاب فى بساط العقيق (23) وتقديـر حسـن حسنـى عبد الوهاب لا يبعد عما عرف ـ لحد الآن ـ من أسماء الشعراء الذين ذكرهم ابن رشيق فى أنموذجه إذ بلغ ما أحصيناه منهم ـ لحد الآن ـ مائة شاعر منهم خمسة وثمانون مذكورون فى مسالك الأبصار للعمرى ٠ والبقية من الـوافى للصفدى ، وواحد انفرد بذكره عياض فى المدارك (24) هو محمـد بن علـى الطبنى ٠ وبما أن ابن الأبار ألف كتابه « تحفة القادم » مضاهيا به ابن رشيق فى كتابه « أنمـوذج الزمـان » ، فان العبارة التى يقول فيها « ٠٠ وشارعا فى

---

(21) البساط ص 132 ٠

(22) وفيات الأعيان (5 : 233) ٠

(23) البساط ص 79 ٠

(24) المدارك ورقة 283 ط (مخطوط العبدلية رقم 9254) ٠

تكميل عددهم مائة شاعر وشاعرة ۰۰ » (25) يمكن أن ترجح أن عدد شعراء « الأنموذج » كان مائة شاعر أو ما يقرب من هذا العدد ۰ كما أن عبارة ابن الأبار « ۰۰ وقصرته على أهل الأندلس بلدى ۰۰ » (26) تزيد توضيحا لتحديد الاطار الذى ضم شعراء إفريقية مما سبق أن أشرنا إليه من ان « القيروان » لا يقصد منها مدلولها اللفظى بقدر ما تعنى مدلولها السياسى فى ذلك العصر أى إفريقية الصنهاجية ، لهذا فان الكتاب لا يشمل أصيلى القيروان فقط بل نجد من المسيلة ابن رشيق نفسه ومثله عبد الكريم النهشلى وعمران بن سليمان ، كما نجد فيه من تونس أمثال على بن يوسف وعبد الواحد الزواق ۰ ومن قرى المهدية نجد خلف أحمد من « السعديين » ومحمد ابن أبى المنهال من « زبنة » ، ومن بادية الساحل عبد العزيز بن محمد ، ومن جراوة عبد الله بن محمد ، ومن قفصة محمد بن إبراهيم الكفيف ، وغيرهم كثير ۰

وحصر ابن رشيق كتابه فى شعراء زمانه لا يعنى أنه جمعهم كلهم ؛ لأننا نجد البعض من أولائك المعاصرين غير موجودين فى كتاب « الأنموذج » ۰ وقد نبه التجانى على ذلك فى رحلته ۰ من ذلك ما ذكره بخصوص عبد الحليم السوسى الكاتب ۰ فقد قال التجانى : ان ابن رشيق أهمله فى « الأنموذج » وأثبته أمية بن أبى الصلت فى « الحديقة » (27) ۰ وكذلك الشأن بالنسبة لأبى عمرو عثمان الصفاقسى المعروف بابن الضابط (28) ۰ ولا يعزى ذلك الاغفال الى الجهل بالشاعر فان ابن الضابط كان معروفا عند ابن رشيق نفسه ؛ فقد جاء فى كتاب الصلة لابن بشكوال (29) أن أبا عمرو الصفاقسى قال : بعث الى شعراء القيروان حين مقامى بها وهم : ابن رشيق وابن شرف ، وابن حجاج ، وعبد الله العطار ، يسألوننى أن أرسل إليهم شعرى ، فقلت للرسول : إنه فى مسوداته ۰ فقال : كما هو ۰ فأخذته وكتبت عليه ارتجالا :

---

(25) المقتضب من تحفة القادم للبلقينى ص (ى) ۰

(26) نفس المصدر ص (ط) ۰

(27) الرحلة ص (42) ۰

(28) الرحلة ص (79) ۰

(29) الصلة (2 : 389) وانظر رحلة التجانى (79) والحلل السندسية للسراج (مجلد 7 : 336) ۰

خطبت بنـاتي فأرسلتهـن إليـك عواطـل من كـل زينه
لتعلم أنـى ممـن يجـود بمحض الـوداد ويشنـأ ضنينه
فقل : كيف كان ثناء الجليس أضمخ بالمسك أم صب طينه

فأجابونى عن بطء بهذه الأبيات :

أتتنا بنـاتك يرفلـن فى ثيـاب من الـوشى يفتـن زينه
فلما سفرن فضحن الشموس وسرب الظباء وأخلجن عينه
ولما نطقن سحرن العيـون وظـل القـرين ينـادى قرينه
أفى بابل نحن أم فى العراق وفوق البسيطة أم فى سفينه
فدعنى أرقب صحـو الجميـع لنسمـع من كل مدح عيونه

وفى هذا النص أمران واضحان : الاول أن ابن الضابط أقـام بالقيـروان وطلب منه ابن رشيق وصحبه شيئا من شعره • والثـانى أن جـواب ذلـك « الصحب » يدل على إعجابهم بشعره بل حتى على شدة الاعجاب به والمبالغة فى مدحه • ولا يمكن أن يعتذر لابن رشيق عن ذلك الاغفال بأنه لم يطلع على شعر من أغفل ذكرهم لأنه كان فى إمكانه ـ بالنسبة لابن الضابط ـ أن يثبت له تلك الأبيات الثلاث التى بعث بها إليه وإلى أصحابه • ونحن نجـده يثبت مثل ذلك الشىء القليل بالنسبة لغيره ممن لم يصله منه إلا ذلك المقدار،وهذا ما فعلـه ـ مثلا ـ مع الشاعر أبى الحسن القينى الذى أثبت له أربعـة أبيـات لاحظ عليها بقوله : ولم أحفظ له شعرا إلا قوله : (يذكر الأربعة أبيات) لأن أكثر شعره على قلته من هذا النوع وكان ضنينا به (30) •

وفى ترجمة مضر بن تميم الفزارى نجد ابن رشيق يتحدث عن أخيه غيلان ويقول إنه أعلم وأشهر من أخيه (31) • فهل كان غيلان هذا لا يقول الشعر ، أم أنه أغفله كذلك ؟ إن غيلان لم ترد له ترجمة فى النصوص التى بين أيدينا من كتاب الأنموذج • ولهذا لا يمكن البت فى ذلك •

---

(30) يقول ابن رشيق عن شعر ابن القينى : فيه كفر عظيم خارج عن القياس وسب شنيع فى النبى وأصحابـه وأزواجـه عن الـوافى (19 : 73) (مخطوط أحمد الثالث بتركيا) •

(31) الوافى (25 : 175/أ) •

ومهما يكن فان التساؤل يبقى قائما عن السبب الذى جعل ابن رشيق يهمل بعض الشعراء المعاصرين له ، ولم يذكرهم فى الأنموذج ٠

سيرورة الأنموذج :

يعتبر ابن رشيق من كبار المؤلفين الأفارقة نظرا لكثرة « العناوين » المنسوبة إليه (32) ٠ إلا أنه ـ لسوء الحظ ـ لم يصلنا منها كاملا إلا كتاب « العمدة » ورسالة « قراضة الذهب » ، وأنقال متفرقة من كتاب « الأنموذج » الذى كان له ذكر وشهرة فى الكثير من الكتب المعتنية بالتراجم والطبقات مما يدل على رواجه فى المشرق والمغرب على حد سواء خاصة فى القرنين السابع والثامن للهجرة ؛ ففى القرن السابع نجده معتمدا عند ابن ظافر الأزدى (613 هـ) ، وياقوت الحموى (626 هـ) ، والقفطى (646 هـ) ، والتيفاشى (651 هـ) ، وابن الأبار (658 هـ) ، وابن خلكان (681 هـ) ٠ فى القرن الثامن نجده عند التجانى (كان حيا سنة 717 هـ) ، وابن فضل الله العمرى (749 هـ) ، والصفدى (764 هـ) ، وابن شاكر الكتبى (764 هـ) ٠

ويعتبر ابن بسام (542 هـ) من أول المصادر ذكرا لكتاب الأنموذج فى كتاب « الذخيرة » (33) واذا كان البعض من هؤلاء لم يذكروا ـ تصريحا ـ الاطلاع على عين الكتاب أو النقل المباشر عنه (مثل القفطى فى انباه الرواة تبعا لسنته فى اغفال المصادر التى يعتمدها) (34) فاننا نجد البعض الآخر يثبت ذلك بالنص ٠ وكان من أكثرهم ذكرا لذلك ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » عند ضبطه للكثير من أسماء مدن إفريقية وقراها مثل مواد

---

(32) انظر عن تآليف ابن رشيق : إنباه الرواة للقفطى (1 : 304) ـ والوفيات لابن خلكان (2 : 85 ، 89 ، طبع بيروت) ـ والبساط لعبد الوهاب (129 ـ 133) ـ وابن رشيق للميمنى (76 ـ 84) ـ وبركلمان (1 : 307 ـ والذيل 1 : 539) ـ والحياة الأدبية للشاذلى بويحيى (112) ـ وكشف الظنون وهداية العارفين فى عدة مواضع ٠

(33) الذخيرة ، مجلد رابع ، القسم الثانى (مخطوط) ٠

(34) مع ملاحظة أن القفطى (1 : 304) عدد بعض الكتب لابن رشيق دون أن يذكر الأنموذج ٠

باجة (35) وجراوة (36) ورصفة (37) وصدف (38) والهواريون (39) ٠ وكانت النسخة التى اعتمدها ياقوت الحموى من كتاب « الأنموذج » نسخة مكتوبة بخط ابن رشيق نفسه ٠ وكان ياقوت حريصا على ذكر ذلك فى كل مرة بمثل هذه العبارات : « وقرأت بخط الحسن بن رشيق » و « كذا ضبطه من خط حسن بن رشيق » و « من خط يده نقلته » و « من خطه نقلت » (40) ٠ وكان ضياع هذه النسخة خسارة كبيرة بخصوص هذا الكتاب ٠ أما الصفدى فقد ذكر فى الجزء العاشر من « الوافى » عددا من تآليف ابن رشيق ذكر من جملتها « الأنموذج » ٠ وعقب على ذلك بقوله : « ٠٠٠ وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره فى الادب واطلاعه على كلام الناس ، ونقله لمواد هذا الفن وتبحره فى النقد » (41) ٠

اما ابن فضل الله العمرى فقد افتتح نقله من الأنموذج بقوله : « وأما من طرز بهم ابن رشيق أنموذجه فجماعة منهم عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى » (42) ٠

وقد مر سابقا أن تنصيص التجانى على بعض الشعراء الذين لم يذكروا فى الأنموذج يدل على أنه اطلع بنفسه على كتاب « الأنموذج » كاملا ٠ ومن قبله اطلع عليه من المغاربة ابن بسام وابن الأبار أما ابن سعيد المتوفى سنة 623 هـ فانه لا يمكن الجزم بشيء فى ذلك ما لم يكشف عن كتابه « المغرب » لأن الأنقال التى ذكرها فى « رايات المبرزين » و « عنوان المرقصات والمرطبات » طفيفة ومقتضبة جدا ٥ وهكذا الأمر بالنسبة لكتاب « وشاح الدمية » تأليف أبى الحسن البيهقى المتوفى سنة 565 هـ٠

---

(35) (1 : 457) ٠

(36) (2 : 46) ٠

(37) (2 : 788) ٠

(38) (3 : 375) ٠

(39) (4 : 995) ٠

(40) الاحالة على مراجع ياقوت السابقة لهذا ٠

(41) مخطوطة دار الكتب الوطنية رقم 13322 ورقة 231/أ ٠

(42) علما بأنه ذكر قبل ذلك تسعة من الشعراء بمناسبة عرضه لما ذكره ابن سعيد فى « عنوان المرقصات المطربات » ٠

ويكاد يحصل الجزم بأن النقل المباشر عن كتاب « الأنموذج » انتهى فى القرن الثامن الهجرى رغم أنه كان موجودا فيه فى المشرق والمغرب • وقد حاول بعض المختصين فى العصر الحديث العثور على نسخة من كتاب « الأنموذج » فلم يقع الظفر بذلك حتى الآن ؛ فيذكر الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى بساط العقيق أنه نقب زمنا طويلا بحثا عنه فلم يجد له أثرا ، ورجا ممن يقف على نسخة من الكتاب المذكور أن يرشده بمحل وجودها ليتأتى بذل الجهد فى الحصول عليها (43) كما يذكر الاستاذ الميمنى أنه لم يجد له ذكرا فى فهارس خزائن الكتب العمومية (44) •

وقد توقع محمد رضا الشبيبى فى بحثه « أدب المغاربة والأندلسيين » أن كتاب « أنموذج الزمان » يمكن أن يكون من حملة الكتب التى أهداها القاضى الفاضل للعماد الأصفهانى صاحب « خريدة القصر وجريدة العصر » (45) إلا أننا نجد « العماد » فى رسالته الجوابية للقاضى الفاضل لا يذكر كتاب « الأنموذج » وإنما يذكر كتاب « العمدة » إذ يقول : ولو امتد عمره الى مدته لعمد الى إخفاء عمدته « (46) وكان العماد حريصا على إثبات أسماء الكتب التى أهتديت إليه فى أسلوبه السجعى المعروف • وكانت عناية الميمنى بجمع ما توفر له من أشعار ابن رشيق ، وتآليف رسالة عنه ، وذكر كتاب الأنموذج وتعداد بعض من ترجم لهم فيه ابن رشيق (47) جعلت محمد بن الخوجة يوهم أنه ربما توجد نسخة من كتاب الأنموذج مخطوطة باليد بمكتبة الشيخ عبد العزيز الميمنى (48) وأكثر من ذلك أن « بروكلمان » ذكر مختصرا لكتاب الأنموذج فى مكتبة « امبروزيانا » فى ميلانو (49) وتبعه فى ذكر ذلك ــ دون تعقيب ــ عبد الرحمان ياغى (50) بينما ما يوجد فى المكتبة المذكورة لا يتجاوز ترجمة عبد الله بن ابراهيم الطوسى والقصيدة الفائية لابن قاضى

---

(43) البساط (132/133) •
(44) ابن رشيق (80) وانظر الحياة الأدبية للشاذلى بويحيى (110) •
(45) قسم أدب المغاربة والأندلسيين (ص 25) •
(46) الخريدة قسم شعراء مصر (1 : 49) •
(47) ابن رشيق للميمنى (ص 80) •
(48) تقديم كتاب عنوان الأريب (ص ج) •
(49) بروكلمان (الذيل 1 : 539) •
(50) حياة القيروان (323) •

ميله التي ذكرها ابن خلكان استطرادا في ترجمة يحيى بن أكثم قاضي المأمون العباسي (51) .

طـريقة تأليـف الأنمـوذج :

البحث عن هذه النقطة هو أيضا من بـاب الاستنتـاج لأن الكتـاب غيـر موجود . ومنذ البدء يمكن أن نرجح أن الكتاب ألف دون أن يرتبه ابن رشيق أبجديا ولا حسب سني الولادة أو الوفاة . وأن ما ذكـره ابن فضـل اللـه العمري يكاد يكون الصورة الأقرب للترتيب الأصلي للكتاب . وقد رأينـا أن ابن رشيق عاب على أبي إسحاق الحصري عزمه على تأليف طبقات الشعـراء حسب الأسنان مما يبعد معه أن يسلك ابن رشيق نفس الأسلوب المعـاب . وأما الترتيب حسب ـ الوفيات فان الكتاب كان يشمل الأحياء والأموات معا. وأما الترتيب الأبجدي فلا يوجد ما يرجحه ولو كان ذلك لاتبعـه ابن فضـل العمري لأنه يكون أيسر لديه من أن يعيد هو ذكر أولائك حسب الذي اتفق له في مسالك الأبصار . وهكذا نقف على حد ما ارتأيناه الى أن يسعف القدر بظهور نسخة أصلية من الكتاب .

وكانت طريقة ابن رشيق في جمع مواد الكتاب تعتمد على المحفوظ لديه ، وعلى المخالطة ، والمراسلة . وأن إثباته للنصوص الشعرية لم يكـن على جهـة الاختيار وإنما على نسبة ما توفر لديه منها . يقول ابن رشيـق في ترجمـة القزاز : « ... وشعر أبي عبد الله أحسن مما ذكرت . لكنني لم أتمكن من روايته . وقد شرطت في هذا الكتاب أن كل ما جئت به من الأشعار على غير جهة الاختيار » (52) وفي آخر ترجمة معد بن خيار الفارسي يقول:«...وشعر معد مشهور مأثور ، يستغرق البناء ، ويستعجز الشعراء . وقد أتيت منـه بما حوته روايتي ، وانتهت إليه درايتي » (53) بينما نجده في ترجمة محمد الكموني يقول : « ... وشعر محمد كثير جيد . وإنمـا أكثـرت منه إدلالا بجودته ، وثقة بأن الملل ساقط عنه . لا سيما أني لم أذكر له ولا لغيره معنى

---

(51) المصورة رقم 890 من فهرست ح. ح. عبد الوهـاب رقم 18990 بـدار الكتب الوطنية .

(52) الوافي (2 : 304) .

(53) الوافي (26 : 18/أ) مخطوطة أحمد الثالث .

أعدته ، ولا خلطت من فنون الشعر فنا وجدته • فاكثارى توسط كما شرطت ، وإن أفرطت • وكذلك اختصارى إذ اجتهدت وما فرطت إذ كانت الحال كقول الله تعالى : على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ••• » (54) ومن أمثلة الأخذ المباشر عن بعض الشعراء ما ذكره فى ترجمة على بن حبيب التنوخى ، وعبد الله الجراوى ، ومحمد بن شرف ، وقرهب الخزاعى مما هو مذكور فى النصوص المنقولة عن الأنموذج • وكان البعض من الشعراء يبعث إليه بالشعر ليثبته فى الأنموذج عندما بلغهم أنه يصدر تأليفه ومن ذلك ما أثبته فى ترجمة عبد الرزاق بن على النحوى :

يقول ابن رشيق : « ••• كتب إلى (عبد الرزاق النحوى) لما صنعت هذا الكتاب صحبة قصيدة أنفذها إلى لأثبتها :

يا مبرزا إبريز خير سبيكة ومكللا إكليل خير متوج
ومطرزا حلل البلاغة معجزا كل الورى ببراعة الأنموذج
فكأنه للسمع لفظ أحبة وكأنه للعين روض بنفسج
وكأنه للقلب سحر علاقة فى مهجة تخشى الصدود وترتجى
خصصت أهل الغرب منه بمشرق لأغر من شمس النهار وأبهج
رجحت بين ذوى الفصاحة منهم وفصلت بين مرتب ومسمج
وكشفت عن شعرى لتلحقه به فاستر على خل لسترك محوج (55)

وإثبات هذا النص يفيد مدى اهتمام شعراء العصر بكتاب الأنموذج ، وحرصهم على إثباتهم ضمنه • كما يدل على شعور المغاربة بضرورة العناية بانتاجهم وتخصيصهم عن أهل المشرق بالكتابة ولعل هذا الشعور كان من جملة الدواعى التى دفعت بابن رشيق الى تصنيف كتابه • ولو أننا نجده – أثناءه – يجعل من صفات مدح هذا الشاعر أو ذاك أنه سلك سبيل هذا الشاعر أو ذاك من المشارقة ؛ فالشريف الزيدى أشبه الناس طريقة فى الشعر بكشاجم (56) وابن قاضى ميلة يسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأقوال والحكايات (57) وعبد العزيز بن البقال يلقى الكلام إلقاء ،

---

(54) مسالك الأبصار (84/أ) •
(55) الوافى (16 : 258/أ) •
(56) المسالك (91/أ) •
(57) المسالك (85/أ) •

ويسلك طريق أبى العتاهية فى سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مآخذ الكلام(58) أما أبو إسحاق الحصرى فكان يرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، وتتبعا لآثاره (59) وعندما دخل معد بن خياره صقلية شبهه يوم دخول أبى الطيب المتنبى مصر (60) ٠

النقد الأدبى فى الأنموذج :

لعل أهمية كتاب الأنموذج لا تتمثل فى النقد بقدر ما تتمثل فى إثبات النصوص الشعرية والتعرض فى كثير من الأحيان إلى مظاهر من الحياة الأدبية والاجتماعية فى إفريقية فى القرن الخامس الهجرى ٠ وبالرغم مما ذكرناه من أن بعض الدارسين اعتبر كتاب الأنموذج مجال تطبيق للنظريات النقدية التى أقرها ابن رشيق فى العمدة ، فاننا لا نرى ذلك التطبيق يتماشى ـ إلا قليلا ـ مع تلك القواعد النقدية اللهم فى تعقيبه على بعض النصوص التى يذكرها ابن رشيق لبعض الشعراء ٠

أما أحكامه الوصفية التى يقدم بها لكل شاعر من الشعراء فلا تعدو فى غالبها أن تكون أحكاما عامة لا تخلو من المبالغة والتعميم فى كثير من الأحيان ؛ فالجراوى كان شاعرا قويا فحلا ، وصافا دريا بالخبر والنسيب ، جيد الفكر والخاطر (61) وأبو إسحاق الحصرى عنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى جرى الماء ، ورق رقة الهواء (62) وعبد العزيز الطارقى شاعر مجود فخم الكلام ينحته نحتا ٠ وأكثر اشتهاره بالنثر دون النظم إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان (63) وعبد الواحد الزواق شاعر مفلق قوى أسس الشعر وأركانه ، وثيق دعامه وبنيانه كأنه أعرابى بدوى يركب ظهر

---

(58) الانباه (2 : 178) والوافى (19 : 2/أ) ٠

(59) إرشاد الأريب لياقوت (2 : 94) والوافى (6 : 61) ٠

(60) الوافى (17 ـ 132/أ) ٠

(61) المسالك (181/ب) ٠

(62) إرشاد الأريب (2 : 94) ٠

(63) الوافى (19 : 12/ب) ٠

الشعر ، ويخوض بحر الفكر (64) الى غير ذلك من الأمثلة مدحا أو ذما — إلا ان ذلك لا يقلل شيئا من قيمة الكتاب ما دام فى الاساس ليس بكتاب نقد عام • وما دمنا — أيضا — لا تملك نصه الكامل حتى يتيسر لنا الحكم له أو عليه فى مجال النقد الأدبى وقواعده فى كتاب لم يضعه أساسا للنقد • وما نحسب أنه ألفه باعتباره مجال تطبيق لما أقره من قواعد أو شرحه من نظريات • ومهما يكن فان أحكامه العامة تلك لا تصل الى المستوى اللفظى والتعميم الأجوف الذى نراه عند ابن بسام مثلا ومن أتى بعد ذلك من أساليب التفخيم والزخرفة اللفظية منذ بداية التدلى فى الأساليب الأدبية وغيرها •

وبعد فان هذه المحاولة هى مجرد تعريف وتمهيد لما سوف نتناوله بمزيد أكثر وتفصيل أطول عن هذا الكتاب بحول الله • وعسى أن تهيىء الأقدار أسباب نشر الكتاب المذكور أو على الأقل جمع شذراته المنشورة فى مختلف المصادر والمراجع (65) •

م• ع• م•

(64) الوافى (19 : 129/أ) •

(65) حاول شيئا من ذلك المرحوم زين العابدين السنوسى سنة 1951 عندما نشر عددا من شعراء الأنموذج (27 شاعرا) فى جريدته تونس • إلا أن ذلك النشر كان ينقصه الكثير من طرق التحقيق الحديث •

رسالة القيروان

شعر : جعفر ماجد

قيرواني يطول عنك غيابي ··· ويمرّ الزمان مرّ السحاب ...
ذا زمان تطير فيه الثواني ··· وسنُوه لها التماع الشهاب
كلّ يوم نعيشه باختصار ··· كلّ ليل ننَامُه باقتضاب
وكأن الحياة حلم سريع ··· يأكل العمر في مطاوي الضباب
غير عهد قضّيته بين أهلي ··· فاق في حجمه قياس الحساب

* * *

لا تزيدي .. فقد عتبتِ كثيرا ··· وتقبّلتُ كل هذا العتاب
شرعة الكون أن نحبّ ونشقى ··· والهوى قد يكون حلو العذاب
يا ربوعا عشقت فيها بلادي ··· لست أنساك رغم طول اغترابي
إن تَوَلّى الصبا وجفّت رؤاه ··· لم تزل لي هنا بقايا شباب
أورق الغصن في ثراك ويبقى ··· طائر الأيك حالما بالإياب
قد تشربت سحر تلك الأماسي ··· وتنفست عطر هذي الروابي
وتلقيت من عظامك مجدا ··· وضعوه أمانة في الرقاب
أي ذنب لنا إذا ما كتبنا ··· حرف شعر بكلّ فصل وباب ؟
قدّر الله أن تصوني المعاني ··· وتكوني خلاصة الآداب ...

* * *

عمدة الشعر والحياة ظلام ··· نورها هزّ كل أفق خابي
قد رمت في الهشيم ومضة نار ··· فسرت في عروق جسم مصاب
وتداعى القديم من كل فن ··· واستعاد الجديد فصل الخطاب

ورنا الشرق نحونا باهتمام ... ولقد كان قبلها غير عابي
لغة الضاد هذه الأرض حصن ... فيه نحميك كلنا بالحراب

* * *

سوف تبقين وجهنا وقفانا ... ونسيج الأرحام والأنساب
إن تعالى النباح من كل صوب ... هل يعوق المسير نبح الكلاب
إنّ مسخ الشعوب أبشع مسخ ... وخراب العقول أنكى خراب
ما عدوّ يحيطني وأراه .. ... كعدو يعيش تحت ثيابي
يا بلادي .. ولست أدعوك عجبا ... رغم أني أقرّ بالإعجاب
ضفر المجد تاجه وحباه ... غادة غازلته تحت النقاب
عقبة قال : هذه قيرواني ! ... ورمى منك راية في السحاب
فنشرت الهدى على كل صقع ... وحميت الشمال من كل ناب
قلعة كنت حين تعدو العوادي ... فيك يلقى الطغاة مر العقاب
لن تخوني رسالة من قديم ... كنت أعطيتها دماء الشباب

* * *

أمة صنتها ولم تخذليها ... أنت تهدينها دروب الصواب

ج٠م٠

حول مرثية ابن رشيق للقيروان

بقلم : الدكتور عمر الدقاق
(سوريا)

حين يقبل باحث على تاريخ أدب العرب ويعمد الى ذكر الاقاليم التى ازدهر فيها التراث العربى عبر العصور ، يغدو لزاما عليه ان يذكر بلاد المغرب العربى فى عداد هذه الاقاليم ويجعلها بجانب مصر والشام والعراق والاندلس ٠٠ كذلك كان شأن القيروان فى تلك الربوع الافريقية كشأن دمشق وحلب والكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة ، حين كانت ايضا حاضرة العلم والادب والمركز الحضارى الذى تألق فيه الحرف العربى حينا من الزمان وشع على دنيا العرب ٠

لقد انبتت القيروان فيمن انبتت ، واحتضنت ايضا فيمن احتضنت قافلة مباركة من الاعلام فى الشعر والنثر ، واللغة والنقد ، والتاريخ والتراجم ، والفقه ، والطب ٠٠ والذين ينتمون الى القيروان من النابهين فى هذه المعارف كثيرون لعل فى رأسهم ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة 463 هـ ، والحافظ عبد الرحمان بن محسن القيروانى المتوفى سنة 380 هـ ، وابن أبى زيد عبد البر بن عبد الرحمن المتوفى سنة 386هـ ، وابراهيم بن القاسم القيروانى المعروف بالرقيق ، المتوفى سنة 417 هـ ، وابن شرف محمد بن ابى سعيد القيروانى المتوفى سنة 460 هـ ، وجعفر بن محمد القيروانى المتوفى سنة 534 هـ والطبيب المؤرخ احمد ابن ابى خالد ، ابو جعفر القيروانى ، المعروف بابن الجزاز والمتوفى نحو سنة 350 هـ (1) ، وابو اسحق ابراهيم بن على الحصرى القيروانى المتوفى سنة 453 صاحب زهر الآداب ، وأبو الحسن على بن عبد الغنى القيروانى الشاعر الضرير صاحب قصيدة « يا ليل ، الصب ٠٠ » ٠٠ حتى ان شعراء القيروان بلغوا حدا من الكثرة جعل ابن رشيق يخصهم بكتاب اسماه « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » الخ ٠٠ هذه هى القيروان ، انها بحق « بغداد المغرب » (2) ٠

---

(1) صاحب كتاب « زاد المسافر » فى الطب ، وكتاب « الاعتماد » فى الادوية المفردة ، وكتاب « البغية » فى الادوية المركبة وكتاب « طب الفقراء » وكتاب « اسباب الوباء فى مصر » ٠٠

(2) انظر : ابن رشيق القيروانى ، نوابغ الفكر العربى ، تأليف عبد الرؤوف مخلوف ، ص 5 دار المعارف بمصر 1964 ٠

أما ابن رشيق فهو كشأن الافذاذ ، متنوع المواهب ، متعدد الجوانب ، آنه ناقد ، مؤرخ ، شاعر ، ناثر ، لغوى ، فقيه (1) ، منصف ٠٠

وكثيرا ما يلحق الغبن وسوء الحظ من كانوا من هذا الطراز من الاعلام ، اذ يعرفون من خلال مظهر من مظاهر نشاطهم المتعدد ، فتطغى ناحية مما يجيدون على سائر النواحي فتكاد تخمل ذكرها ٠ وهكذا عرف ابن رشيق ناقدا كما عرف ابن حزم فقيها وابن عبد ربه مؤلفا ، وهم جميعا طليعة العلم والادب فى المغرب والاندلس ، وكانوا فى الوقت نفسه يقرضون الشعر ويجيدون نظم القصيد ، ومع ذلك لم يكونوا يعدون دائما فى الشعراء ٠ ولعل ذلك مما أدى الى قلة احتفاء الناس بشعر ابن رشيق ، وربما كان السبب ايضا فى ضياع ديوانه ٠

على أن جهودا معاصرة كان لها فضل فى محاولة استكمال دراسة شخصية ابن رشيق من جوانبها كافة ، وبخاصة فى الكشف عن ابن رشيق الشاعر (2)٠

واذا أمعنا فى تضييق شقة الموضوع يطيب لنا ان نخص بالقول مرثية ابن رشيق فى مدينته القيروان ولعل ما يميز هذه القصيدة من بين سائر شعر ابن رشيق أنها اطول القصائد التى بين أيدينا ، اذ يبلغ عدد أبياتنا 56 ستة وخمسين بيتا ٠ ويكاد يكون من المؤكد أنها فى أصلها تزيد فى عدد ابياتها عن هذا الحد ، فما بين أيدينا منها يبدأ على هذا النحو :

---

(1) ذكر صاحب كشف الظنون ان ابن رشيق شرح كتاب (الموطأ) فى الحديث لمالك ، وقد جاراه فى ذلك صاحب الاعلام ، ويبدى الدكتور عبد الرحمن ياغى بعض الشك تجاه ذلك فى مقدمته لديوان ابن رشيق ص 10 ٠

(2) كان العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الاستاذ بجامعة على كره بالهند سباقا الى جمع شذور شعر ابن رشيق ولم شتاته داخل مجموعة اسماها « النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف » وبعد ذلك عمد الدكتور عبد الرحمن ياغى الى تدارك ما فات سلفه من اشعار وجمع ما تيسر له من شعر ابن رشيق فى ديوان يقع فى 231 صفحة تضمن 214 من القصائد والمقطعات تعد 743 بيتا ٠
كذلك عالج شعر ابن رشيق فى جملة ما عالج الاستاذ عبد الرؤوف مخلوف فى كتابيه « ابن رشيق الناقد الشاعر » و « ابن رشيق القيروانى »

كم كان فيها مـن كـرام سادة
بيض الوجوه شوامـخ الايمـان

وواضح ان هذا ليس مطلع القصيدة ، ولكنه امتداد لابيات سابقة،والضمير (فيها)كذلك يعود الى قول سلف ، فضلا عن فقدان التصريع فى هذا البيت ، وهو ظاهرة بديعية لا شك في أن ابن رشيق وأمثاله كانوا يحرصون عليها فى ذلك العصر ٠

أما أن تكون القصيـدة فى اصـل ابياتهـا قد بلغت /122/ مائة واثنين وعشرين بيتا (1) فأمر محتمل الوقوع ولكننا لا نستبعد فى الوقت نفسه ان يكون هذا العدد مبالغا فيه نتيجة احتمال تداخل ابيات هذه القصيدة مع ابيات اخرى من قصائد موازية لها فى الموضوع والوزن والقافية ، على غرار ما حدث خلال مرثية أبى البقاء (2) وغيرها (3) ٠٠

وواضح ان هذه القصيدة تنضوى تحت غرض رثاء الممالك ، هذا الغرض الذى يعد بمثابة وتر جديد شده الاندلسيون والمغاربة الى قيثارة الشعـر العـربـى وعزفوا عليه أشجى ألحانهم ٠ ومع ذلك فلا بد من التمييز بين نمطين من رثاء الممالك، نمط يصف ما حاق بالبلاد من عسف وهوان، وقتل ودمار، حين كانت فئة من الحاقدين او الطامعين تطغى وتستبد بالامور وتعيث فى الارض فسادا ، من مثل ما حل بالبصرة حين دهمها الزنج ، وقرطبة حين دهمها البربر ، او اشبيلية وبطليوس وبعض مدن الاندلس حين أطاح بحكامها المرابطون ٠٠٠ وهذا أقرب الى أن يدعى انقلاب الدول منه الى أن يسمى زوال الممالك على حين نجد نمطا آخر ضمن هذا الغرض الشعرى يتصل بماحاق بديار العرب والاسلام وبخاصة فى الاندلس من اهوال ومحن وابادة وتهجير على ايدى الفرنجة٠ ولعل هذا النمط أبعد شهرة من سابقه لانه ارتبط باحداث جسام وانطوى على نهايات

---

(1) يورد هذا العدد الدكتور عبد الرحمن ياغى فى مقدمته لديوان ابن رشيق دون ان يشير الى المصدر الذى استقاه منه ٠

(2) انظر المقرى فى « ازهار الرياض » I : 47 – 49 ٠

(3) يبدو أن شمس الدين محمودا الكوفى نسج مرثيته فى بغداد خلال نكبتها الشهيرة على غرار مرثية ابن رشيق واحتذى قافيته وبحره حين قال قصيدته التى مطلعها : ان لم تقرح أدمعى اجفانى   من بعد بعدكم فما أجفانى

فاجعة ، حين لم تعد تلك الحواضر والمدن تذهب من ايدى العرب الى العرب، بل إنها الآن وفي طور الافول أخذت تخرج الى الأبد من أيدى العرب لتعود الى حوزة الاسبان ، من مثل ما قاله ابن العسال في بريشتر وطليطلة وابن حمديس في صقلية ، والوقشي في بلنسية ، وسائر ما قاله لفيف آخر من الشعراء في رثاء عدد من مدن الاندلس او بقية ربوعها كابن بقى وابن الابار وابي البقاء ٠٠٠

اما قصيدة ابن رشيق فهي من النمط الاول الذى يعكس الصراع المرير بين المسلمين في افريقية حين كان باسهم بينهم شديدا ، وكثيرا ما كانت الاحداث تتفاقم وترتدى طابع الفتن والاحقاد ، كالذى حدث بالقيروان :

حتى اذا الاقدار حم وقوعها
ودنا القضاء لمدة وأوان

أهدت لها فتنا كليل مظلم
وارادها كالناطح العيدان

وابن رشيق في هذا النمط من رثاء الممالك او تصوير انقلاب الاحوال فيها يمكن جعله في زمرة ابن الرومي وابن حزم وابن شهيد والمعتمد وابن عبدون ونحوهم من الشعراء الذين بكوا ربوعهم وابتأسوا لمصائر بلدانهم ٠٠

على أن ما يلفت النظر في مضمون هذه المرثية ان ابن رشيق فيما وصف انما كان يصدر عن شعور ديني عارم لانكاد نجد له شبيها عند سائر شعراء زمرته الذين تناولوا انقلاب الدول واجتياح الفتن لبعض الحواضر ٠ وهذا امر طبيعي فلم يكن من هم البربر في الاندلس مثلا او المرابطين او من كانوا من هذا القبيل ان يخربوا المساجد ويدنسوا المقدسات ما داموا يدينون بالاسلام٠ولهذا اتسم شعر ابن‌حزم ونثره مثلا ما بطابع عاطفي مفعم بالمرارة،وقد تلفع بغلالة انسانية رقيقة ٠٠ وهذا يعني ان مرثية ابن رشيق تشير الى ان ما حدث في القيروان على يد قبائل بني هلال من استباحة للحرمات وتعرض للمقدسات انما كان مشابها في طبيعته لما ارتكبه الفرنجة من هول في ممالك المسلمين ، حتى انه لم تقم للقيروان بعد هذه النكبة قائمة طوال قرون عدة ٠

وذلك في نحو قوله :

فتكوا بأمة أحمد ، أترآهم أمنوا عقاب الله في رمضان
واستحسنوا غدر الجوار وآثروا سبي الحريم وكشفة النسوان

أو قوله :

.. وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا	سنن الحديث ومشكل القرآن
واذا دجا الليل البهيم رأيتهم	متبتلين تبتل الرهبان
فى جنة الفردوس اكرم منزل	بين الحسان الحور والغلمان
المتقين الله حق تقاته	والعارفين مكايد الشيطان

ثم يخص ابن رشيق جامع عقبة بالوصف فيقول بأسى بالغ :

والمسجد المعمور جامع عقبة	خرب المعاطن مظلم الاركان
قفر فما تغشاه بعد جماعة	لصلاة خمس لا ولا لأذان
بيت به عبد الاله وبطلت بعد الغلو عبادة الاوثان	
بيت بوحى الله كان بناؤه	نعم البنا والمبتنى والبانى

وابن رشيق يجنح الى التهويل على مألوف العرب فى هذه الموضوعات :

اعظم بتلك مصيبة ما تنجلى	حسراتها او ينقضى الملوان
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها	لتدكدكت منها ذرى ثهلان
وأرى النجوم طلعن غير زواهر	فى افقهن وأظلم القمران
وأرى الجبال الشم أمست خشعا	لمصابها وتزعزع الثقلان
والارض من وله بها قد أصبحت	بعد القرار شديدة الميلان

وما من ريب فى ان مبالغات كهذه قد لا تبدو سائغة فى عصرنا هذا ، ومن جهة اخرى كان جديرا بابن رشيق ان تتخمر الاحزان فى نفسه وتتوضع الآلام فى قريحته لتفيض هذه النفس بعد ذلك ببالغ الحكمة ، ولكننا لا نكاد نجد شيئا من هذا القبيل الذى عهدناه لدى شعراء آخرين كالبستى (١) ثم ابن اللبانة وابن عبدون واخيرا ابو البقاء ..

على اننا ينبغى مع ذلك الا نجزم بافتقار القصيدة إلى الحكمة ما دام شطر غير قليل منها لم يصل الينا .

---

(١) البستى : شاعر مشرقى توفى سنة 400 هـ

ومن الطبيعي في موضوع كهذا ان تتجلى الفاجعة فى اطار جماعى حين يعمد الشاعر الى تصوير عاطفة قومه فى كثير من الشمول ، كأن يقول مكتئبا على مصير القيروان :

حزنت لها كور العراق بأسرها
وقرى الشآم ومصر والخرسان

وتزعزعت لمصابها وتنكدت
أسفا بلاد الهند والسندان

فالعاطفة هنا تتسع لتلف برحابها امة العرب وسائر مسلمى الارض ٠٠

ومن هنا قل حظ القصيدة من الذاتية وازداد من الجماعية ، وبالتالى لم يعد المجال هنا مجال النواح وذرف الدموع ٠ ولعله كان من الاطرف لقصيدة ابن رشيق ان يحاول الشاعر التفلت من فلك الاعراف الشعرية التى تؤثر التعميم واقتضاب الوصف ، كأن يعمد الى الاقتراب من وصف الجزئيات وتصوير اللقطات التى تمتح من طبيعة الاحداث التى جرت دون سواها ، اى ان يجنح الى شىء من الذاتية ومن التخصيص ومن التفصيل ، واذ ذاك يغدو فى نجوة من ذلك التشابه الذى يكاد يطبع اكثر المراثى فى زوال الممالیك بهذا الطابع ويبعد عنها سمة التمايز ٠

ومن هنا ، لعل أجمل ابيات ابن رشيق ، فى رأينا ، ما كان اوفرها خصوصية واحفلها ذاتية ، حين جنح الشاعر الى تصوير تجربته الفردية ومعاناته الذاتية تجاه مدينته المنكوبة ، القيروان :

أترى الليالى بعدما صنعت بنا
تقضى لنا بتواصل وتدان

وتعيد ارض القيروان كعهدها
فيما مضى من سالف الازمان

ع٠ د٠
حلب ـ سورية

شاعر القيروان

شعر : حسن كامل الصيرفي

في « القيروان » نشأ الشاعر الناقد أبو علي الحسن بن رشيق الأزديّ ؛ صاحب كتاب « العمدة » ، والذي ولد والقرن الرابع يتثاءب مع عقْده الأخير ، وتوفي في « صقلية » غريبا عن موطنه والقرن الخامس يتجاوز عقْده الخامس أوال ادس بقليل . وهو الذي هتف بالليل أن يطول ، فقال :

أيها الليلُ طُلْ بغير جَنَاحِ ليس للعيْنِ راحةٌ في الصباح
كيف لا أبْغِضُ الصباحَ وفيهِ بان عني نُورُ الوُجُوهِ المِلاحِ

ثم رثى القيروان بعد أن عدَتْ عليها أحداث طائشة ، وخرج منها والنار تأكلها وتأكلُ قلبه ، وظلّ حنينه إليها لا يخمد حتى خمدت أنفاسه وصدى صواته يتردد مع الزمان :

أتُرَى الليالِي بعدما صنعتْ بنا تَقْضِي لنَا بتواصُلٍ وتَدَانِ
وتُعِيدُ أرضَ القيروان كعهدها فيما مَضَى من سالفِ الأزمانِ
من بعد ما سلبتْ نضائرَ حُسْنِها الـ ـأيّامُ ، واختلفت بهَا فِتْنَتَانِ

وفي « القيروان » خرج للوجود شاعر آخر معاصر لابن رشيق هو أبو عبد الله محمد بن شرف الجذاميّ المتوفى عام 460 هـ ، صاحب هذا القول :

سقَى الله أرضا أنبتتْ عُودَكَ الذي زكَتْ فيه أغصان وطابت مغارسُ
تغنّى عليها الطير وهي رطيبةٌ وغَنّى عليها الناس والعُودُ يابسُ

ومن « القيروان » أطلّ على الزمان طائفة من أعلام الفكر : شعراء ، وكتّاب ، ونُقّاد . وانطلق منها صوت أبي الحسن علي بن عبد الغني

الحُصْريّ الضرير، يهتف بالليل ألاّ يطول، فهو يعيش في ظلمة كتب عليه القدر أن تغشاه، فيقول:

يا ليلُ الصبُّ متى غدُهُ	أقيامُ الساعةِ موعدُهُ

ويحن إلى القيروان فيقول قبل أن يلحق بهذين الشاعرين في دار الخلود بعد عشرين عاما:

ألاَ سقى اللهُ أرض القيروان حيًّا	كأنه عبَراتي المُستهِلّاتُ
وكفّ عنها أيادي المُفسدين لها	ولا عدَتْها من الخيْرات عاداتُ
فإنها لِدَةُ الجنّات، تُرْبَتُها	مسكية، وحصاها جوهريّاتُ

وفي «القيروان» يقف بعد عشرة قرون شاعر من ضفاف النيل في العيد الألفي لابن رشيق، ليقول:

يا هاتفا مِنْ فُؤادٍ شفّهُ الألمُ	وهائما في دُجى كالموج يلتطِمُ
وسائلا عن غدٍ تَزْهُو مطالِعُهُ	هذا هو الغدُ، فانْظُرْ كيف يبتسمُ
وداعيا لحبيبٍ عِشْتَ ترْقُبُهُ ...	هذا «الحبيبُ»، وهذا الشمل ملتئمُ
كم خلفَ كلِّ دجى: سرٌّ تخبئهُ	مشيئةُ الله حتى تُقشَعَ الظلَمُ
وهذه «تونسُ الخضراءُ» مشرقةٌ	في عهدِهِ، بجلال الأمن تتسمُ
وهذه «تونسُ الخضراء» تفتح لي	صدرا يفيض به الإعزازُ والكرَمُ
وتزْدهي مُقْلتيّ اليوم لوْحتها،	فجنّةُ الله حوْلِي نورُها عمَمُ
أزاحَ عنها بنُوها كل ذي جشعٍ	يبتزُّ خيراتِها - غصْبا - ويلتهِمُ
وزَحزَحُوا ظلمة بغضاءَ قاتمةً	ظلّتْ تشوّهُ ما قد زيّنَ القدَمُ
كانت رُؤى في خيالي أن أخفَّ إلى	رُبُوعِها قبلَ أن يَطْويني العدَمُ
حتى تحقّقَ حلمي في فجاءتِهِ،	فجئتُها ... وتلاقى الصحْوُ والحلمُ
عرَفتُ «شابيّها»، والعمرُ متشحٌ	ثوبَ الشباب، ونارُ القلب تضطرِمُ
فتى كومْضةِ مِصْباحٍ بآخرةٍ	يلهُو بها القاسيان: الجهدُ والسقمُ

يصوغُ منْ قلبِه شعرا كأنّ به ... أصداءَ نايٍ مع الدّمْعات تنسجمُ
وفيهِ زمجرةٌ غضبَى كأنّ بهَا ... برْكانَ نارٍ على الطاغوت يحتدمُ
وكنتُ ألمحُ في شكواهُ أمتَّهُ ... تئنُّ حيثُ يَسُودُ الظلمُ والصَّمَمُ
ولا تنامُ على ضيْمٍ ، مهيّأةٌ ... لوثْبةٍ تتحدّى كلّ من ظلموا...
إباؤها قمّةٌ للنّجْمِ صاعدةٌ ... وكيفَ تعنو لغيرِ الخالق القمَمُ !؟

* * *

في «القيروان» ، وفي أفياءِ ظُلّتها ... سعى على الدرب : فكرٌ مشرق ودمُ
همّا عمادا فتى توحي ملامحُه ... بما تُخبّئُه الدنيا وتكتتمُ
على البَسيطِ الموشّى منْ مرابعها ... حيث انتشى الزّهرُ لمّا هزّه النَّسَمُ
وفي الفسيح المُروّى منْ مواجلها ... حيث ازدهى الزّرْعُ وازدادت به النعمُ
وحيث يسمو النخيل المجتنى ثمرا ... كأنملاتِ الغواني زانَها العنَمُ
وحيث يأتلقُ الزّيتونُ مُزدهيا ... كأنه فوق صدْرِ الغادةِ الحلمُ
وحيث تمْرحُ في الوُديان سائمةٌ ... على غناءِ رُعاةٍ بالرضا نعموا ...
وحيث ترتفعُ الأجبالُ شامخةً ... كأنها عزْمُ أهليها الذين هُمُ ...
هم الأشاوس لم تخْمدْ لعزّتهم ... عزيمةٌ ، أو تَهِن من هممهمْ هممُ
وحيث «عُقبةُ» ألقى رَحله ، وبدا ... من خلفِه : النور والإسلام والحرَمُ
طوّى الصّحارى إليها حاملا أمَلا ... في أن يرفّ على « افريقيا » العلمُ
أمرٌ من اللهِ أنْ تعلُو شريعتُه ... في الخافقَين ... وأمرُ الله ملتزَمُ
فشُيِّدَتْ حيث حلّ المسلمون بها ... مساجدُ اللهِ تسْعَى نحوَها القدَمُ
فوْقَ المآذن تكْبيرٌ تُردّدُه ... جوانبُ الأُفْقِ أصْداء لها نغَمُ
وتحت أسقُفِها العلْياءِ همْهمةٌ ... لناسكين يَشيعُ النورُ فوقَهُمُ
وألْفَتْ بين أهلِ الشرق في نسقٍ ... وبين أبناءِ هذا المغربِ الرّحِمُ
دمٌ جرَى في عروقِ العنصرَين ، فما ... يشوبهُ ضغَنٌ يوما إذا اختصَمُوا
ووحدتْ في ائتلافٍ بيننا لُغَةٌ ... فليس يفصم هذي الوحدةَ العجمُ

... في ظل هذا الجمال الملتقي تحفا   فتانة حارَ فيها العقلُ والفَهَمُ
شبَّ الفتى «ابن رشيق» والزمان فتى   يرَى حوَاليهِ دورَ العلمِ تؤتَمُّ
تبدُو مواهبُهُ ، والعمرُ مؤتنقٌ ،   يرنو اشتياقا إلى تسجيلها القلَمُ
ساعٍ إلى منهلٍ من بعدِ سابقِهِ   للعلمِ ، يرشفُ منه الظامىءُ النهمُ
حتى إذا مااستوى عود الفتى انطلقتْ   قيثارةُ الشعرِ يهوَى شدوَها الكلِمُ
أصغى لها أفق «الخضراء» وانبعثتْ   أصداؤُها خلفَ هذا الأفق والرَّنَمُ
شعرٌ عليهِ من الطاوُوس : زينتُهُ ،   ومن عصير الدوالي : العتق والقدمُ
يرقُّ حتى كأنَّ العين تحسَبُهُ   دموعها انهملتْ ، أو انهُ ديَمُ
منْ شاعرٍ كسرَى الأطياف خفتُهُ   تكادُ ألفاظهُ يحلُو بهنَّ فَمُ
إذا انتضَى الصبحُ سيفَ النورِ شق لهُ   طريقهُ حيثُ لا إثمٌ ولا لمَمُ
إلى المسَاجدِ يمضي في صبيحتهِ   حيثُ الخشوعُ وحيثُ الكتبُ تزدحم
منقبًا في التراثِ الحيِ في دأبٍ   عن كلِّ ما نثرَ الماضُون أو نظموا
ونحنُ أبناءُ مجدٍ خالدٍ أبدًا   قد خلَّفوهُ لنا أجدادنا القُدُمُ
حتى إذا ما الدجى أرخى عباءَتَهُ   آوَى إلى الشمعة تذوِي وتخترمُ
نديمهُ : صُحفٌ بيضٌ ، ومحبرَةٌ ،   وخادمِ الوَحي ذاكَ الصامتُ : القلمُ
صريرُهُ فوقَ خدِّ الطرْسِ سلوتُهُ ،   لا يعتريهِ بهِ يأسٌ ولا سأمُ
والعلمُ كالدين يجزَى عنهُ ناسكهُ   بالخلد ؛ نعم الجزاء : الخلد عندهمُ
في الجامع الأعظم المشهورِ تسبقهُ   وُفودُ طلابِهِ تسعَى وتنتظمُ
يُملي عليهم كتابا ظلَّ عمدتنا   في دقةِ النقد ، حين النقد يتهمُ
نهجٌ سليمٌ ، وميزان إذا وُضعتْ   فيه الأمور استعزتْ عنده القيمُ
والنقد إن لم تنزهْ كفتاهُ هوَى   إلى الحضيض وشاهَ الحكم والحكم

* * *

لم أنسَ صرختَهُ والنارُ تلتهمُ   هذا الجمالَ ، وهذا المجدُ ينهدمُ
وعصبةٌ ساقها الشيطانُ باغيةً   على حِماهُ ... فراحَ الشمل ينقسمُ

صبُّوا على «القيرَوَان» الشرَّ في غسقٍ ... لم يرْدعِ الشرَّ ميثاق ولا قَسَمُ
يسوقهمْ طائشُ الطغيانِ في عمهٍ ... كما تُسَاقُ إلى جزّارِها الغَنَمُ
يخرّبونَ ولا يدْرون ما خرّبُوا ، ... ويأثَمُون ولا يدرون ما أثِمُوا
ويفتكون بأرواحٍ مُبَرّأة ... من شائب الحقد لم يصْددهمُ ندمُ
كأنما ثَارَ بُرْكانٌ ، فصاعقةٌ ... تهوِي عليها ، وتهْوِي بعدها حممُ
والناسُ في جزَعٍ ، يجرُون في هلعٍ ... قد خلفُوا ما بنى آباؤُهمْ لهُمُ
طوفانُ بَغْيٍ طَغَى وامتد جائشهُ ... يطوِي الحياةَ ، وتطفو فوْقهُ الرمم
يا هَوْلُ ما فعلُوا يا بئس ما صنَعوا ... يا وَيحَ ما اقترَفوا يا شرَّ ما اجترموا !
والعهدُ إن لم تَصُنْهُ ذمّةٌ خلصَتْ ... للهِ تعملُ ، ضاعَ العهدُ والذمَمُ
ما للشعوبِ إذا ما الأمنُ حالفها ... هبتْ حماقةُ قومٍ في الطريق عموا !

* * *

بكى «الرّشيقي» مجد القيروان دما ، ... وهزّ وِجْدانَهُ الأحْزانُ والألمُ
لما رأى الأرض ـ أرض المجد ـ قد غمرت ... بالمفسدين وجيش البغْي يقتَحِمُ
آوَى إلى سفن في البحر ماخرَةٍ ، ... والبحرُ كالأرض فيه الموجُ يلتحمُ
وفي صِقليةٍ ألقى مرَاسيَهُ ... وغاب في الصّمتِ هذا العاشق السدم

* * *

واليوم بعد قُرون عدة رَجعَتْ ... رُوحُ الغريب ترُودُ الدارَ تلتثمُ
والقيروان تعيدُ اليومَ سيرَتها ... ولَنْ تَموت إذا ما استبسلتْ أمَمُ ...

ح. ك. ص.

من وحي الذكرى الألفية لميلاد ابن رشيق

تحيــــة

شعر : الشاذلي عطاء الله

يُحيِّيكمُ البلـد الطيِّبُ وترحيبه بكُمُ أطيبُ
تحيِّيكمُ « صبرة » القيروان و « رقادة » والحمى الأرحب
تحيِّيكمُ لا بزهر شـذيٍّ ولكن بما وشَّجتْ يعرُبُ
وبالضاد إذ وحَّدت بيننا وكان بها النسب الأقـرب
ونحن وأنتم رضيعو لِبَـان فلا الشرق نـاء ولا المغرب
وإن فرّقـوا بيننا بالحـدود فقد وُحِّـدت أمنا والأب
وإنَّا لِقحطانٍ إذ نتمي وبالدين أعراقُنا تُنْشَبُ

★★★

وبعثا لأمجادنا الخالدات وحرصا على رفع شأن الادبْ
وبحثا عن الدرر الغاليات وجمعا لما كان منهَا سُلب
.. أقيم احتفال بدار المعزّ لصنَّاجةِ العرب المنتخَب
لشاعرنا الناقد ابن رشيق بعيد الجوار قريب النسب
لاحياء ذكرى انقضا ألف عام على مولد الكاتب المرتقب
وتقييم ءَارائه في « القراضة » حتى ولو أنها من ذهب
وعرضٍ سريع لآثاره ولو ان أكثرها قد نُهب

★★★

ومن بلدِي الشاعرُ ابن رشيق يناقضه الشاعر « ابن شرف »
أديبان عاشا على جفـوة وكانا على غير ما قد ألف

وشعر النقائض كنز ثري وفي صحف الفنّ منه نُتَف
أقام جرير به والفرزدق سوقا لعرض التحف
ولكنّه زبَدٌ ذاهب جُفاء وإن خلّدته الصحف
وعاد النّمير الى صفوه وعدنا لينبوعه نغترف
وفي البحر درٌّ ثمين ولولا مهارة غوّاصه ما ثقف

***

أبا الحسنِ اسمعْ نشيدَ الخلود يُردّد في قاعة المهرجان
وأصداؤه تملأ الخافقيْن ويصغي لها اليوم سمع الزمان
يقوم بإعداده «الاتحاد» لكتّابنا واختيار المكان
فخلنا «المعزّ» على تخته يشير لشاعره بالبنان
فيشدو بإنشاده نائرا لآلىء تُزري بعقد الجمان
يصفّق زهوا لها الحاضرون ويُكبرها صاحب الصولجان
فكان علينا لهم منّةٌ ستذكرها بالثنا القيروان

***

يدٌ برّة لم يُتح مدّها لنا أبدا قبل عهد «الحبيب»
ومن فوقها يده شجعت وأعلت مرارا مقام الأديب
فلم يشق في عصره شاعر ولم يحي في ارضه كالغريب
وها نحن في محفل ابن رشيق فهل يذكر «الحصري» في القريب
وهل ستتلوهما نخبة يقام لهم مهرجان مهيب
فيصدحُ بالشعر شحروره ويبدع فيما يجيد الخطيب
وترفع للمجد أعلامه ويورق بعد الجفاف القضيب

***

أبا الحسن! اقبل تحياتنا وان كان مثواك في «مازرَه»
ولكنّ روحك في حفلنا نحسُّ بانفاسها الطاهره

وإن جالت الألف ما بيننا فذكراك في النفس والذاكره
ونعتزُّ بالنّزر من ثــروة عليها أتت محنٌ قاهـــره
وجرّ عليها العَفَا ذيلــه ودارت على قطبها الدائـره
وغـام الظـلام على أفقها فحجّب أنجمهـا الزاهـره
ولـكن تاريخنا خالـــدٌ سترعـاه نهضتنـا الثائـره

* * *

ومن أرض «عقبة» مثوى الغـزاة ومحراب مسجـده الجامع
ومن دار سحنون تهدى اليكم بواكير من وردها اليانـع
وتأمل أن تقبلـوا ما تواضع من برّهـا بالقِـرى الـوادع
فلسنا سوى إخوة قد نمت فصائلَ في الوطـن الـواسع
وليست فلسطين إلا امتدادا لأفـق العروبـة في الـواقـع
فلسطين أو غيرها من بني عمـومتنـا بالـــدم الـــوازع
وما القدس الا مصلّى النبي ومسراه للكوكب السـابع

* * *

تُبـارك هـذا اللقـا أرضنا وترجـو له المغنـم الأوفَرَا
وأن يورق الغصن في روضه ويصبح بعد النَّمَـا مثمرَا
وأن تتوالى زياراتنـــا لـكم ولنا كي تُشدّ العُرى
ونحيا جميعـا على مستـوى يُعيد لنـا أمسنـا النيِّـــرا
تُـؤدّي ثقافاتنا بيننـا رسالاتِـها دون ان نفترَا
فتصبح أقطـارنا جبهـة ونحمـي بها الـوطن الاكبرَا
وباسم مـدينتنـا نحتفــي بِمن زارنا واعتلى المنبـرَا
ونرجو لنا ملتقى قادمـا يقـدّم فيه الذي أخّرَا

ش٠ ع٠ ٠١

رأي في كتاب (العمدة)

بقلم : رياض المرزوقي

يعد كتاب (**العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده**) (١) لابن رشيق المتوفى 1064/456 من المعالم الهامة للحركة النقدية فى الأدب العربى عامة ، وفى الأدب القيروانى الصنهاجى خاصة ٠

وإن من أراد الاقتراب منه أو دراسته ، وجد نفسه فى طريق متعدد المسالك تعدد جوانب الكتاب ٠

ـ فيمكن تناوله بصفته « أثرا مدحيا » موجها لولى نعمته ابى الحسن على بن أبى الرجال المتوفى 1035/426 ، فى عصر كان فيه الادب التكسبى هو الغالب ٠

ـ **أو بصفته** أنموذجا للمثل الادبية العليا آنذاك ، فيكون صـدى « لفيـم ثقافية » **يحاول** الكاتب فرضها ٠

ـ **ويمكن أيضا** ان يعتبر « كتاب أدب » على الطريقة الجاحظية ٠

ـ **أو** كتاب مختارات شعرية (Ont hologie) ٠٠ أو ٠٠ أو ٠٠

لكننا نلاحظ اهمال الدارسين عامة للمنطلق **الذاتى ، الشخصى** للكتـاب ، رغم أنه يبدو بوضوح ، فمنذ المقدمة يؤكد المؤلف ترابطه النفسى وأثره فيقول

« نفضت جـراب صـدرى ، وانتقـدت كنز معرفتـى [٠٠] فمثلت لـه [ابن ابى الرجال] **نفسى** وأهديتها اليه ، ومثلت بها حقيقة بين يديه » (2)

ويقلل من أهميته رجوعه الى المصادر مغلبا آراءه الشخصية فيقول :

« وعولت فى أكثره [أى الكتاب] على قريحة **نفسى** ، ونتيجة خاطرى ٠٠»(3)

ويبدو ذوقه الشخصى فى مظهرين :

---

(١) وقع الاعتماد على طبعة محمد محى الدين عبد الحميد الثالثة ، القاهرة 1963

(2) العمدة ، ١ ، 18 ٠

(3) العمدة ، ١ ، 17

1) اختياره للنماذج الشعرية المستشهد بها ، ورغم غلبة الطابع « الكلاسيكي » عليها تماشيا مع الذوق الادبى السائد آنذاك (4) فقد أفسح المجال لنماذج أدبية محدثة مشرقية (كابن المعتز ، ومسلم بن الوليد) ، وقيروانية (كابن ابى الرجال) ؛ وفى هذا الموقف ضمنى من معركة نقدية عظيمة هى معركة (القدماء والمحدثين) • وقد عبر عن رأيه فيها بصراحة حين قال :

« •• ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والاعشى الا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد عن السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولا عنهم ، اذ هو طبع من طباعهم ، فالمولد المحدث ـ على هذا ـ اذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع انه أرق حوكا ، وأحسن ديباجة •• (5)

وحين علق على ابيات لابن أبى الرجال فى الحنين :

« فلو أن أعرابيا تذكر نجدا فحن به الى الوطن ، أو تشوق فيه الى السكن ، ما حسبته يزيد على هذا المولد الحضرى المتأخر العصر •• » (6)

بالاضافة الى اختياره جملة من أشعاره الشخصية •

2) تعاليقه على ما يورد من أشعار أو آراء فى الشعر وتبدأ غالبا بفعل (أقول) ، أو تأتى فى شكل اندفاعى تلقائى يجسم التحمس كقوله :

« فما الذى أعجبه من هذه الاستعارة ؟ قبحها الله ! » (7)

أو قوله :

« فلعنة الله على المحراث ههنا ، ما أقبحه وأركه ! » (8)

---

(4) قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب لابن رشيق ، تحقيق الشاذلى بويحى ، تونس 1973 ص ص 5 ـ 6 •

(5) العمدة ، 1 ، 93 •

(6) العمدة ، 1 ، 134 •

(7) العمدة 1 ، 273 •

(8) العمدة 1 ، 273 •

وهو ينطلق فى أحكامه هذه من قواعد يؤمن بها تجسم فى نظره **الشعر الحق** مثل قوله :

« وانما سمى الشاعر شاعرا ، لانه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيها أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الالفاظ ، أو صرف معنى الى وجه عن وجه آخر ، و كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له الافضل الوزن ، وليس بفضل **عندى** مع التقصير ٠٠ » (9)

وهو يقصد فى جمله الاخيرة بالذات معاصريه من القيروانيين ، ويدخل ذلك فى نطاق « حرب أدبية » نحس أصداءها فى (العمدة) ، كما يظهر فى قوله :

« ٠٠ وكم فى بلدنا هذا من الحفات قد صاروا ثعابيــن ، ومن البغـاث قد صاروا شواهين ، ان البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعد خطـله ، ويحصـى زلله ، لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه ، وفساد معانيه وركاكه لفظه ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطـلا ، وانتسبـوا اليهـا انتحالا ٠٠ » (10)

ولا بأس من تقريب الجملة الواردة أعلاه « كان اسم الشاعر عليه مجـازا لا حقيقة » من الجمل الاخيرة فى هذا الاستشهاد ؛ وهذه الاشارات الى القيروان كثيرة منذ المقدمة التى يذكر فيها « سوء المكان » الذى منعـه من التوسـع فى الدراسة (11) ٠

ولا يجب هنا أن نعتبر هذا الموقف الخاص متعارضا مع اختيار ابن رشيـق اتجاه « مدرسة القيروان » (وتضم الى حد ما النهشلى والحصرى صاحب الزهر وابن ابى الرجال) (12) ؛ ويبدو هذا الاخير لا حاميا للأدب فقط (Mécéne) بل وعلما من أعلام هذه الطريقة الشعرية ، يستشهد به ابن رشيق كثيرا فى كتابه ، ويدفع عن اعجابه الادبى مظنة العلاقة المادية فيقول :

---

(9) العمدة 1 ، 116

(10) العمدة 11 ، 239 ٠

(11) العمدة 1 ، 16 ٠

(12) نلاحظ كثرة الاستشهاد بالنهشلى ، وابن ابى الرجال فى (العمدة) ٠ انظر كذلك (قراضة الذهب) ص 7 ٠

« ٠٠٠ وما انحط بهذا التمييز فى هواى ، ولا أتنفق بهذا القول عند مولاى ، ولا الخديعة مما تظن به ، ولا فيه ، ولكن رأيت وجه الحق فعرفته » (13)

أما الدوافع الاخص ، المتعلقة بحياة ابن رشيق الشخصية فتبدو بوضوح فى الكتاب أيضا ؛ فالى جانب شكوى الدهر والحساد وهى غرض تقليدى ، نجد صدى لما علمناه من المصادر حول تنافس خصوم ابن رشيق للاضرار به (14) فهو « قليل الانداد ، كثير الحساد » (15) ، وقد بلغ خصومه درجة اتهامه بالسرقة ، فسماهم « بعض من لا يتورع عن كذب ولا يستحى من فضيحة » (16) ، وهاجمهم ببيان رداءة شعرهم كما يبدو فى مقطوعة حشرت فى « باب البلاغة » استطرادا على اعتبار ابن المقفع السكوت بلاغة ٠

[من مجزوء الرمل]

أيها الموحى الينا نفثة الصل الصموت
ما سكتنا عنك عيا رب نطق فى السكوت
لك بيت فى البيوت مثل بيت العنكبوت
إن يهن وهنا ففيه حيلتا سكنى وقوت (17)

ولا بأس هنا أيضا من التقريب بين صورة الصل ، وصورة الحفاث الواردة أعلاه « وهى حية تنفخ ولا تؤذى » ٠

وفى الجملة ، يقدم لنا (العمدة) نموذجا أدبيا متكامل الصورة ، أكده ابن رشيق فى كل آثاره (18) ، ويمثل تيارا نقديا أدبيا هو لسان « مدرسة » جديدة ، لكنه مع ذلك وربما قبل ذلك صورة للحالة الادبية فى قيروان القرن الخامس ، بمعاركها ، واندفاعاتها ، وهو مجموعة « نفثات » ، وخواطر خاصة ، واختيارات ذوقية لأديب مازال لم يعط حظه من الدراسة ٠

رياض المرزوقى (مارس 1975)

---

(13) العمدة I ، 134 ٠
(14) انظر مثلا (قراضة الذهب) ص 250 ٠
(15) العمدة I ، 16 ٠
(16) العمدة II ، 239 ٠
(17) العمدة I ، 243 ــ 244 ٠
(18) (قراضة الذهب) ص 7 ٠

ترنيمة قيروانية

شعر : محيي الدين خريف

تَصَبَّتكَ العُيونُ القَيرَوَانِيّهْ
بِسحرٍ لمْ يكُنْ في البَالْ
كِنَانيةٌ نِزَاريّةٌ مَعَدِيّهْ
تَقَاصَرُ دُونَها الآمَالْ

* * *

نَأَتْ بِي في القُرونِ . وهَدْهَدَتْنِي رَوَاجِعُ الألْحانِ
رَدَّتْنِي الى أيامِهَا وأنَا العَميدُ بِها إلَى الأبَدِ
ملاَحِمُ أمتِي وعَبيرُ أجْدَادِي . وغِيلُ مَرَابِضِ الأسدِ
تُخبّرُ عَنْ سَمَاءٍ حجبتهَا خُيولُ عُقْبَةَ بالغُبَارِ
وعَنْ حُشود مَالَهَا عَدَدُ
أولاكَ النَّصرُ والإرْهَاصُ والايمَانُ والعُدَدُ
فَسَامِرُ لِيْلهِمْ قُرآنْ
وسائِرُ يومهِمْ فتحٌ لكلِ مغَالِقِ البلْدَانْ

* * *

تَغنّى مِزْهَرِي بالمَجْدِ ألْمَحُهُ عَلَى الأسْوَارْ
تَطَاوَلُ في غُروبِ الشَّمسْ
وبِالتَنْمِيقِ أعْيَى حُجّتِي حتَّى
تَقَرّتْهُ يَدَايَ بِلَمسْ
وبِالتَّارِيخِ أبْصِرُهُ يُحدِّقُ
لَيْسَ يُفْنيهِ الزمَانُ . وَلَيْسَ يُبْلِيهِ
فَيَجْذِبُنِي إلَيْهِ لأنّنِي فِيهِ

أشرع مُغْلَقَ الأبْوَابْ
وأقْرَأ فِي ظلال الصمْت ألْفَ كِتَابْ
فُتُوحَاتُ المُعِزِّ وَمَجْدُ رَقَّادَةْ
نُجُومٌ لَمْ تَزَلْ رَغْمَ اخْتِلَافِ اللَّيلِ وَقَّادَةْ

* * *

هُنَا يَغْفُو الخَيَالُ وتَعْذُبُ الذِكْرى
وَيَنْطَلِقُ الجَنَاحُ الى فَضَاءٍ لَيسَ بِالمَحْدُودْ
وَيَمْضِي الفِكْرُ فِي تَهْوِيمَةٍ كُبْرَى
وَتَصْحُو العَيْنُ بَعْدَ نُعَاسِهَا المَكْدُودْ
لِتَنْعَمَ بِالشذَى وَاللَّوْنِ بينَ مياهِ فسْقِيَّهْ
وبِالنَقْشِ المُنَمْنَمِ فَوْقَ زَرْبِيَّةْ
وبِالأرْكَانِ يَعْبَقُ عِطْرُهَا المَسْكُوبْ
لِيُومِضَ مِثْلَ بَرْقٍ مِنْ خِلَالِ الغَيْمِ ثُمَّ يَغِيبْ
وَيَحْكِي قِصَّةَ الأمْجَادْ
لِقَوْمٍ غَالَبُوا الأيَّامَ وانْتَصَرُوا
كَأنَّهُمُ القَضَا فِي الأرْضِ والقَدَرُ

* * *

وَجِئتكِ بالحروف وبالتهاويلِ الجَنُوبيَّهْ
لأقرأ فِي رِحَابِكِ شِعْرا
لانَّ الشِّعر خَاطَ رِدَاءَهُ فِي ظِلِّ وَادِيكِ
وسَاقَ النَّاسَ مِنْ خَمْرٍ وَلاَ كَالخمرْ
« فَلَيلُ الصَّبِّ » بَعْضٌ مِنْ أغَانِيكِ
وقَافِلَةٌ مِنَ الأبْعَادِ تَضْرِبُ فِي أرَاضِيكِ
ولَحْنٌ دَائِمُ التَرْدِيدْ
يُرَجِّعُهُ شِفَاهُ الغِيدْ

تحية عصرية لابن رشيق

شعر : محمد الأخضر عبد القادر السائحي

أقيروان العلا سلاما
من ألف عام عليك حاما
فكان صوتا من الحياة
الى الحياة دعا وهاما
وكان انشودة الحداة
إذا الحداة رأوا مراما

تحية لك من ربايا
تحية الحب لا القضايا
تحية كلها إخاء
(اوراس) يطبعها سجايا
خضراؤنا عرفت صداها
وابن رشيق لها تحايا

كما تداعت قلوب قوم
اليك يا كعبة الامانى
تطوف سائلة وتسعى
الى أشعة قيروانى
تسلق الشمس فيك طفلا
فى الطامحين بلا توان

رمى (مسيلته) وراء
فى رحلة العلم دون لوم
حتى تألق مستفيضا
الى السماء بخير رسم
ومن هناك له شعاع
يمد للنبع فيض علم

* * *

يا كعبة العلم اين منا
تلك الدروب التى اناروا ؟
الناس يأكلها خمول
يقتلها الكسل الجدار
يبصقها الليل والنهار
هل يعرف الليل والنهار ؟

واين من يعرف الجوابا
فى زمن يرعب اكتئابا
تمازج الفهم فى دناه
فأعطت السحب الترابا

وحول الغاز نار عصرى
الى لهيب بلا رماد
النار لا تلد الرماد ؟
والحب لا يلد امتداد ؟
والشعر يسأل عن حبيب ؟
والنقد يبحث عن عميد ؟

فى الجو للعابرين مسرى
فى البحر للقاطنين مأوى
فى الطابق العاشر الصغير
يجتمع العالم الكبير
فى ألف ميل من الصحارى
لا شىء الا دجى الصغار

* * *

لم يكتب الشعر من قديم
ومن حديث سوى القلوب
أهاجها هاتف المغانى
ولاعج الحب من عيون
نجل تفيض من الحنان
تفجر الذكريات سكرى
والعين لا تستجيب حيرى
والقلب فى نشوة الحبيب
والحب أضحى بلا نسيب
أليس هذا من العجيب ؟

* * *

فى هذه الارض كان حيا
كان الجميع له وفيا
وكل شيء له قريب
النار من شوقه سلام
والنور من بعده ظلام
والشرق والغرب فى غروب
كانت فلسطين نبع حب
نبع السلام بكل قلب
نبع الاخوة بين شعبى
يؤمها الحاج فى أمان
فيملأ العين من ثراها
ويكتب الحب عن رباها
تسبيح خاشعة وفان
تعجر النبع يا صديقى
أضحت فلسطين نبع ثوره
يا ثورة عبدت طريقى
الفسق يا وطنى كثير
والعهر يا وطنى كثير
والحب يا وطنى قليل
الحب يا وطنى قليل
فأين أين دم الضمير
يا شاعر القصر والامير ؟
دعنى أخى من أسر القيود
دعنى أصارحك يا رفيقى
الى مصيرى ، الى مصيرى
أين المصير ونحن ثوره
تضافر الشر كى تموت ؟
ما الشر الا غشاء سيل
تمضى به حملة بليل
ليطل الصبح من جديد
من ثورة الحق والخلود
من ثورة ترفض الخداع
و (السندباد) الطويل الباع
من ثورة تدفع الخليج
الى المحيط بلا ضجيج
ويعبر الثائرون فيها
بلا حدود ، بلا حديد
بلا وسيط بلا رقيب

* * *

أقيروان المنى سلاما
يجدد الزمن الاماما
أيام شمسك لا تدانى
فكل سار اليك قاما
وكل من راود المعالى
كان حماك له غراما .

تونس (نزل البحيرة) 20/3/75

ابن رشيق ناقدا

بقلم : الدكتور عبده بدوى
(مصـر)

عصر ابن رشيق :

ظهر ابن رشيق فى عصر ازدهار الأدب فى المغرب ، فبعد انحسار العبيديين ــ أو الفاطميين ــ عن المغرب ، ظهر الصنهاجيون كقوة جديدة فى البـلاد ، وعملوا على خلق شخصية متميزة لهم بعيدا عن تأثير المشرق ، وبخاصة بعد أن أحكم انفصالهم عن الفاطميين فى مصر ، وقـد تم هـذا بوساطـة فـرعى الصنهاجيين : بنى زيرى فى المغرب الأدنـى 262 ــ 543 هـ وبنى حمـاد فى المغرب الاوسط 404 ــ 547 هـ ، فقد تبع هذا انتصار أهل السنة الذين كانوا يرتكزون على مذهب الامام مالك ، الى حد القول بأن خروج الفاطميين مـن افريقية كان هربا من الامام مالك ، فقد كان مذهبه يعتبر « النظرية الكاملة » مما يمكن القول معه بوجود ما يمكن ان يسمى « بالقومية المالكية » .

فبعد خروج الفاطميين الى مصر يكون قد تكون أول حكم وطنى بعد دخول الاسلام الى البلاد ، ويكون المالكيون قد عادوا الى سابق نفوذهم ، ويكون قد أحكم الأمر لهم على يد المعز بن باديس الذى كان تلميذا مخلصا للوزير أبى الحسن على بن أبى الرجال الذى كان مالكيا محضا يميل عن الشيعة ، وقـد ترتب على هذا فى عام 440 هـ قطع الخطبة عن الامام الشيعى واعلانها باسـم الخليفة العباسى ، ورفع شعار « السواد » وقد غضب لهذا الفاطميون ، وطال تفكيرهم فى هذا الأمر ، وكان أن استقدم المستنصر بالله الفاطمى رؤساء بنى هلال وحلفاءهم ، ثم قال لهم : قد أذنت لكم فى جواز النيل ، وأوليتكم مـا يملك ابن باديس العبد الآبق ، وكان أن وصلوا فى حملة تخريبية ــ على نحو ما يذكر ابن خلدون وابن شرف ــ الى القيروان ، مما اضطر المعز بن باديس الى الفرار الى«المهدية» وانحصار دولة بنى زيرى بعد ذلك فىمنطقةضيقةمنالساحل تحيط بمدينة المهدية ، ولقد ساعد على هذا مد أوربى منظم على جزائر البليار ، وسردينيه ، وصقلية ، والسواحل التونسية ، وبعض الثغور حتى لقد وصل الامر الى اخلاء مدينة المهدية (1) .

(1) راجع مع حركة الاسلام فى افريقية د. عبده بدوى ، ص 81 وما بعدها.

وما يهمنا من هذه الدولة ان ابن رشيق عاش فى ظلالها ، وأنها شجعت على العلم والادب ، واهتمت باستقدام العلماء ، والكتب والمترجمين من كافة الرقعة الاسلامية ، وما وراءها ، ولقد كانت الدولة فى رخاء اقتصادى ، وكان القائمون على أمرها صفوة من الذين لهم مشاركة جادة فى العلم والادب ٠٠ وهكذا أصبحت « القيروان » يستشرف اليها كما يستشرف الى القاهرة وبغداد ودمشق والكوفة والبصرة ، وأصبح من المتعارف عليه ان الرجل اذا انتسب الى القيروان عرف أنه ينتمى الى صميم العلم والادب وصار بيت الحكمة القيروانى يذكر بسميه القديم فى بغداد ، وحق للبعض أن يذكر أن بعض البلاد حين أصابها الضعف الحضارى « كطرابلس » كان وراءه بعدها عن « الحضرة » (2) والمقصود بالحضرة هنا تونس ، وهكذا أصبحت القيروان كما قيل أحد الاركان ، وارقى من نيسابور ، وأكبر من دمشق ، وأجل من أصبهان مما ترتب عليه ازدهار النقد الادبى وبخاصة فى فترة الصنهاجيين (3)، ففى هذا المناخ ظهرت محاولة اثبات الذات ، ومنافسة المشارقة ، مما ترتب عليه التخفف الى حد ما من قيود اللغة والاشكال المتوازنة ، والاقتباس من فصحى العامية ، والتخفف من تراكم المحسنات ، واضافة أوزان الى الشعر ، وظهور ما يسمى « بالكلام المنظوم على وزن مخصوص » ، وما يسمى « بعروض البلد » بالاضافة الى العالم الثرى للموشحات ٠

ولقد عرفت الفترة التى ازدهرت فيها القيروان بجامعها الكبير عددا من كبار الكتاب والنقاد على حد ما نعرف من أبى اسحق الحصرى القيروانى ت 413 ، وابراهيم بن القاسم ت 425 ، وابن رشيق ت 456 ، وابن شرف ت 460 ، وقد كتب ابن رشيق كتابا بعنوان « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » وهذا شاهد على الثراء العقلى والوجدانى فى هذه الفترة ٠

فالقرن الخامس الهجرى كان يذكر بثرائه وتفتحه الى حد ما بالقرن الرابع فى المشرق ، رجالا ، وطموحا ، ونضجا ، كما أنه فى الوقت نفسه عرف باسم عصر الدويلات العربية ، لأن التمزق السياسى ساد البلاد ٠

(2) رحلة التجانى ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ٠ 27 ٠

(3) عن النقد الآدبى فى المغرب ٠ د٠ عبد العزيز قلقيلة ٠

ابن رشيق :

وولد ابن رشيق فى المحمدية وقيل فى المسيلة ــ عام 390 هـ (1) على أوثق الروايات ، واسمه كما يقول القفطى : الحسن بن رشيق الافريقى المعروف بالقيروانى ، أبوه رشيق مملوك رومى لرجل من أهل المحمدية من الازد ، وقد تعلم من أبيه حرفة « الصياغة » وتلقى تعليمه الأولى فى المحمدية ثم كانت رحلته الى القيروان وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ومن شعره يستدل على أن زوجه كانت احدى هبات المعز بن باديس اليه ، أوانه دفع له صداقها ، أو أن صداقها كان من عطايا الامير المتتابعة له ، وقد رزق منها بنتا ، كما فى قوله :

أتتنى أنثى يعلم اللــه اننــى
سـررت بها اذ أمها من هباتك

ولقد عرف فى القيروان كيف يشق طريقه ، وكيف يوسع مداركه فقد كانت القيروان ممتلئة بعدد من الاساتذة ذوى الاتجاهات الواسعة المتنوعة : منهم من اشتهر باللغة،ومنهم من غلب عليه النقد،ومنهم من غلب عليه الشعر، ومنهم من غلبت عليه الكتابة (2) ، ولقد تفتحت أمامه الآفاق حين اتصـــل بالرجل الذى رفع اليه كتاب العمدة بقوله : « ٠٠ حسنة الدنيا ، وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ، أبى الحسن على بن أبى الرجال ، زعيم الكرم ، وواحد الفهم الذى نال الرياسة ، وحاز السياسة الخ (3) » وهو الرجل الذى كان له دور فى انعاش مذهب الامام مالك ، ولعل هذا وراء القول الذى يقول ان ابن رشيق كان ممن شرحوا الموطا للامام مالك، المهم أنه ألحقه بديوان الانشاء حين كان رئيسا له، ثم ظل يقربه من المعز باديس حتى أصبح فى دائرة الضوء ، وقد انتقل مع المعز الى

---

(1) المحمدية هى المسيلة ، مدينة من أعمال برقة من نـاحية الاسكندريـة ، وقد تعلق بها ابن رشيق ومدحها ٠ راجع ابن رشيق النـاقد الشـاعر عبد الرؤوف مخلوف ص 40 وما بعدها إنباه الرواه على أنبـاه النحاه 277/1 ٠

(2) مقدمة ديوانه ٠ جمع وترتيب د٠ عبد الرحمن ياغى ٠

(3) العمدة 2/1 ط 1 وقد أكثر من الاشارات اليه فى ص 50،87،153،163 ٠

المهدية حين ضاعت منه القيروان تحت الهجمات الهلالية ، ولكن الامير قلاه كما يروى ابن بسام لانه لم يكن موفقا حين دخل على المعز بعد هجوم اسطول الروم على المهدية قائلا :

تثبت لا يخامرك اضطراب
فقد خضعت لعزتك الرقاب

فكان ان قال له : مه ! متى عهدتنى لا أتثبت ؟ اذا لم تجئنا الا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟ ثم أمر بالقصيدة فمزقت ، وقد قيل ان المعز فى هذه الفترة كان متوترا يسيء بالناس الظنون ، وكان أن سار الى صقلية كارها « مع انها لم تكن أحسن حالا من إفريقية » (I) وقد أراد التخلص من مقامه بالذهاب الى الاندلس لمقابلة الامير عباد ، ومناه أحد التجار ، ولكن حين سمحت الرياح وامكن فى ميدان البحر المراح كما يقول ابن بسام ـ ذهب وخلاه مع احزانه وأشواقه ، ومن ثم ظل مقيما بقرية « مازر » بالجزيرة الى أن كانت وفاته عام 456 (2) وقيل الغالب عام 463 (3) .

ومن المؤلفات التى كتبت عنه يتأكد لنا أنه كان طموحا فى غير اسراف ، وانه عاش فى مناخ المالكية وعمل على ازهار هذا المناخ بما قيل عن شرحه للموطا وأنه يدعو الشاعر للمسالمة كقوله معلقا على قتل الشاعر سديف « وما للشاعر والتعرض للحتوف وانما هو طالب فضل ؟ فلم يضيع رأس ماله . وكل شيء يحتمل الا الطعن فى الدول » وكقوله : « والشاعر أولى من كف منطقه وأقال عثرات اللسان » (4) ، وقد ظل ولاؤه للقائمين بالامر والذين اخذوا بيده على الطريق ، وقد كان يهم ويعزم ولا ينفذ على نحو ما نعرف من رغبته فى الذهاب الى الاندلس فقد كان يكره المغامرة ، وقد استهول ركوب البحر فى أكثر من قصيدة ، وفضل الشيب على الشباب ، وله شعر فى القناعة ، وهو القائل :

يا رب لا أقوى دفع الاذى
وبك استعنت على الضعيف الموذى

(I) ابن رشيق . عبد العزيز الميمنى الراجكوتى 50

(2) قراضة الذهب . الطبعة الاولى عام 1926 ص 6

(3) مقدمة ديوانه . د . عبد الرحمن ياغى ص 11 العمدة 1/45 ، 48

(4) ديوانه 4 ، 34 ، 25 ، 26 .

مـالى بعثـت الى ألف بعوضـة
وبعثـت واحـدة الى النمـروذ

ومن شعره نعرفه أحول العينين ،، ظريفا ، ماجنا بحذر وفيا لمن انتفع بعلمهم وجاههم كالنهشلى ، والقزاز ، وعلى بن ابى الرجال ، والحصرى ، بـل انـه يبالغ فى هذا الوفاء ، أما دوره الحقيقى فيظهر فى كتبه التى وصل بها البعض الى ثلاثة وثلاثين كتابا ، تدور حول الشعر والشعراء واللغـة ، والتاريـخ ، والحديث ، والادب ، وبعض جوانب الحياة ، والثابت ان بعض اسماء كتبـه ليست الا فصولا وابوابا من كتبه (١) على أنه يجىء فى مقدمتها جميعا : العمدة فى صناعة الشعـر ونقـده ، وقـراضة الذهب ، فقـد اعـطى الشعـر طاقـته وإبداعه ، والقارىء له يحس أنه استوعب بصفـة خـاصة التـراث النقـدى والبلاغى لابن سلام وابن قتيبة وابن طباطبا ، وقدامة ، والآمدى ، والقاضى الجرجانى ، والرمانى وفى ضوء هذا يكون قد جعل للمغاربة دورا حاسما فى هذا المجال، بعد ان كان اسهامهم قبل ذلك مجرد تفاريق،وتلفت نحو المشارقة خاصة وانه ـ كما ذكر أحمد أمين ـ قد حول الشعر من نقد شاعر بعينه او شعراء بأعيانهم الى نقد الشعر بصفة عامة ، ولعـل هـذا كان فى ذهـن ابن خلدون وهو يذكر انه أعطى صناعة الشعر حقها ولم يكتب أحد فيها قبله ولا بعده مثله ٠

دوره فى كتاب العمدة :

يلاحظ انه بدأ كعادة أهل عصره باهداء فضفاص الى ابى الحسن على بـن ابى الرجال المتوفى فى عام 425 هـ ، ولعله كتبه وهو فى حدود الاربعين ، وهو غير محكم الترتيب ، وان كان ما يحكم الامر كله هو انه ـ بكل ابوابه فى الغالب ـ يدور حول قضية الشعر ، ثم نراه يكتب رسالة بعد ذلك تسمى « قراضة الذهب » ٠

وخطبة الكتاب تلقى اكثر من ضوء على الرجل وفهمه للشعر ، فهو يذكر متواضعا انه لم يعلق من العلم إلا بحاشية قبل اتصاله بأبـى الحسـن على بن ابى الرجال « لسوء المكان ، وقلة الامكان وزمانة الزمان وحدوث الحدثان » ، ثم انها توضح لنا ان الرجل وهو أساسا متعصب للعرب قد أقبل على الشعر لانه اكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الادب ، وأحرى أن تقبل شهادته وتمتثل

---

(١) عن ابن رشيق : عبد الرؤوف مخلوف (76 وما بعدها)

ارادته ، وهو كعادته ، وانطلاقا من موقفه السنى ، وتعاطفه المالكى ، نراه فى القضايا الكبيرة يشفع لها بالسنة النبوية ، وبمواقف الخلفاء بصفه خاصة ، فهو ينطلق من منطق محدد فى ذهنه ، ثم يبحث له عن عمد ، وقد يرى البعض فى هذا مجرد استطراد وثرثرة ولكن منهج الرجل وعصره يؤكد أن الرجل يلح على الحقيقه الواحدة ، ويبرزها فى أكثر من ضوء ٠

وقد هال الرجل أنه مع ما للشعر من مزية وشرف، فان الناس قد اختلفوا حوله ، ولم يكن هذا عن قدرة عليه ولكن عن تخلف عن كثير منه ، فهم يقدمون فيه ويؤخرون ، ويقلون ويكثرون ، وفى الوقت نفسه يبوبونه ابوابا مبهمة ، ويلقبونه ألقابا متهمة ، وقد كان معنى هذا أنه لم يكن هناك تصور عام للشعر ، ولعله كان وراء هذا ان الناس ـ وبخاصه النقاد قد شغلوا بالشعراء ولم يشغلوا بالشعر،ومن هنا كان لا بد من كتاب فى «محاسن الشعر وآدابه»، وهو يؤكد انه لن يقف عند حدود النقل من الآخرين،ولكنه وان كان سيستأنس بآرائهم الا انه فى أكثر ما سيقول سيقول على قريحته ، وعلى خاطره لئلا يكون هناك تكرار ، صحيح انه سيتكىء على الآخرين ولكن سيكون وراء هذا ما يتعلق بسرد الخبر وضبط الرواية ، وما يسنده الى أحد أو الى كتاب فسيكون وراءه أن ملكيته عامة وشائعة بين الناس أو انه رأى خاص به ، وهو لا ينسى أن يؤكد انه سيرد الاصول الى اصحابها حتى يكون كل شاعر أولى بشعره وما كان يعنيه فى المقام الاول هو ان يتعرف الناشئة على وجه الصواب فى الشعر، ثم يضع لمسة تقول: ان صورة الانسان فضلة عن القلب واللسان٠ وان استحقاقه للفضل انما هو من جهة النطق والعقل ٠

ـ ٢ ـ

يؤصل ابن رشيق لقضاياه بالحديث عن العرب والتعصب الواضح لهم فهم أفضل الامم وحكمتهم أشرف الحكم ، ثم يذكر نظمهم ونثرهم ، وان لكل منها ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة ورديئة، وهو انطلاقا من قضاياه الكلية يتحمس للشعر على النثر لان الدر ـ وهو اخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه ـ إذا كان منثورا لم يؤمن عليه٠٠٠الخ ثم نراه ينعطف ـ على خلاف ما تذهب اليه الدراسات الحديثة ـ الى القول بأن الكلام كله كان منثورا فلما احتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، واوطانها النازحة ، وفرسانها الانجاد وسمحائها الاجواد لتهز انفسها الى الكرم وتدل ابناءها على حسن الشيم٠٠ توهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم

وزنه سموه شعرا لانهم شعروا به اى فطنوا ، فما يرتضيه العقل هو القول بأن وزن الشعر العربى أثر من آثار الموسيقى والغناء سواء أكان وراء هذا حركات الابل ، أم تلك الموسيقى الكونيه التى تلف الحياة ، أوانه ينشأ من الحالتين المتعارضتين داخل الانسان : حالة التأثر الوجدانى ، وحالة الضبط الارادى ٠

مهما يكن من شيء فماهم ابن رشيق هو دفاعه عن القول الذى يقول بأفضلية الشعر على النثر مع العلم بأن القرآن نثر ، وان النبى عليه الصلاة والسلام لا يقول الشعر ومن ثم نراه يقول فيما يقول : كما ان القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة والمرسلين وليس بترسيل ، واعجازه الشعر أشد برهانا ثم يقول : ولو أن كون النبى صلى الله عليه وسلم غير شاعر غض من الشعر لكانت أميته غضا من الكتابة وهذا أظهر من أن يخفى على أحد (1) ٠٠ الخ ثم يورد بعضا من الحجج الخطابية ، وتكاد القضية تفلت من يده حين يلتفت الى أبى الحسن على بن أبى الرجال ثم يقول: «٠٠لم أهجم بهذا الرد واورد هذه الحجة لولا أن السيد أبقاه الله قد جمع النوعين،وحاز الفضيلتين فهما (أى الشعر والنثر) نقطتان من بحره ، ونوارتان من زهره ، وسيرد فى أضعاف هذا الكتاب من أشعاره ما يكون دليلا على صدق ما قلته ان شاء الله تعالى (2) »

٠٠ ثم يؤكد قضيته بعقد باب فى الرد على من يكره الشعر نخلص منه الى ان الشعر ضرورة للعرب على حد ما نعرف من قول سعيد بن المسيب لمن قال له ان بالعراق قوما يكرهون الشعر : نسكوا نسكا أعجميا ! ثم نراه ــ كعادته ــ يشفع لقضيته بشعر لابى بكر ، وعمر وعثمان ، وعلى ٠٠ الخ ثم نراه يقول : وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزا ، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة ٠٠ والغناء حلة الشعر ان لم يلبسها طويت ، ومحال ان يحرم الشعر من يحل الغناء به،ثم يقول:وهذا باب لو تقصيته لاحتمل كتابا مفردا ، ولكنى طبقت المفصل وذكرت بعض المشاهير من الناس ثم (3) نراه يعقد عدة أبواب حول هذه القضية نخلص منها الى ان الشعر يرفع من قدر الوضيع الجاهل مثلما يضع من قدر الشريف الكامل ، وذلك لان الشعر ــ لجلالته ــ يرفع من قدر الخامل اذا مدح به مثلما يضع من قدر الشريف اذا اتخذه

---

(1) انظر باب فى فضل الشعر ص 4 ط 1 (امين هندية)

(2) نفسه ص 6

(3) نفسه ص 19

مكسبا كالذى يؤثر من سقوط النابغة الذبيانى لامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسب عنده بالشعر وقد كان اشرف بنى ذبيان ولكنه امتدح قاهر العرب وصاحب البؤس والنعيم ، ثم يقول : فأما من صنع الشعر فصاحة ولسنا وافتخارا بنفسه وحسبه ، وتخليدا لمآثر قومه ولم يصنعه رغبة ولا هبة ولا مدحا ولا هجاء فلا نقص عليه فى ذلك ، بل هو زائد فى أدبه وشهادة بفضله ، كما أنه نباهة فى ذكر الخامل ورفع لقدر الساقط، ثم انه يرفض تلك المقولة التى تقول : ان والد امرىء القيس قد نفاه لما قال الشعر ، ويرجع السبب فى ذلك الى انه كان خليعا متهتكا شبب بنساء أبيه « وبدأ بهذا الشر العظيم » واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، وهو يغرقنا فى العديد من النقول التى توضح ضرورة الشعر وأهميته ، ثم نراه يقول رأيه صريحا من خلال شعر يقوله هو :

الشعر شىء حسن
ليس به من حرج
أقل ما فيه ذها
ب الهم عن نفس الشجى
يحكم فى لطافة
حل عقود الحجج
كم نظرة حسنها
فى وجه عذر سمج
وحرقة بردها
عن قلب صب منضج
ورحمة اوقعها
فى قلب قاس حرج
وحاجة يسرها
عند غزال غنج
وشاعر مطرح
مغلق باب الفرج
قربه لسانه
من ملك متوج
فعلموا اولادكم
عقار طب المهج (1)

(1) نفسه 1/23 و 47 و 48

فجهد الشعر عنده أنه « ليس به من حرج » وانه استشفاء من الهموم ، وشفاعة فى الحاجات ، وطريق الى الملك المتوج وهذا ما يؤكد ان الشعر قد وهن فى عصره ، وعلى كل فهو يؤكد ان الشاعر فى الماضى لم يكن يحتمى بالقبيلة وانما كانت القبيلة هى التى تحتمى به ، ثم يورد عددا من الشعراء الذين حموا قبائلهم ، ويؤكد ان الشعر قد شغل الناس الى حد التفاؤل والتطير به ، ثم يؤكد ان الذين انتفعوا بالشعر كثيرون ، وان الذين ضروا به قلة ، وبصفة عامة فهو يشير الى ان الشعر « مهنة خطرة » ولسير الشعر على الافواه هذا المسير تجنب الاشراف ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحا فتعود جدا · ثم يقول : ومع ذلك كله فلا ينبغى للشاعر أن يكون شرسا شديدا ولا حرجا عرضا لما يدل به من طول لسانه وتوقف الناس عن مخاشنته ثم يقول : والشاعر اول من كف منطقه ، وأقال عثرات اللسان لما رزق من القدرة على الكلام والعفو من القادر أحسن · ويزيد الامر وضوحا حين يضع بابا فى آداب الشاعر يقول فيه أن على الشاعر : أن يكون حلو الشمائل ، حسن الاخلاق ، طلق الوجه بعيد الغور ، مأمون الجانب ، سهل الناحية، وطيء الاكناف··وليكن مع ذلك شريف النفس ، لطيف الحس، عزوب الهمة، نظيف البزة، أنفا لتهابه العامة ويدخل فى جملة الخاصة فلا تمجه أبصارهم ، سمح اليدين ، والصورة هنا بصفة عامة لا تخرج عن كون الشاعر « تشريفاتيا » ظريفا يكدح ليدخل فى جملة الخاصة ، وهو بما قدم يرسم صورة لما ينبغى ان يكون عليه الشاعر فى العصر الذى عاش فيه · على انه بعد ذلك يعرض لقضية سياسية هامة هى قضية الشاعر والحاكم ونظام الحكم حين تعرض للشاعر سديف الذى ضره الشعر وأهلكه حين طعن فى دولة بنى العباس فقال فى خروج محمد بن الحسن على أبى جعفر المنصور :

إنا لنأمن ان ترتد ألفتنا
بعد التباعد والشحناء والاحن

وتنقضى دولة أحكام قادتها
فينا كأحكام قوم عابدى وثن

فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا
ان الخلافة فيكم يا بنى الحسن

وكان أن أمر المنصور بدفنه حيا · فنحن نراه يقول : وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا الباب أو تعرض له ! وما للشاعر والتعرض للخوف ،

وانما هو طالب فضل ، فلم يضيع رأس ماله لا سيما وانما هو رأسه ، وكل شيء يحتمل الا الطعن فى الدول ، فان دعت الى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو فى ملكه، وتحت سلطانه أصوب وأعذر له من كل جهة وعلى كل حال لا كما فعل سديف...وهكذا نراه يحكم على الشعراء بالاستئناس، ويحضهم على المواكبة والسير فى الركاب ، وعلى مجرد تزيين الحياة للآخرين وهذا ما يشككنا فى أنه على الرغم من حماسته للشعر الا ان الشعر فى هذه الفترة ـ على الرغم من فترة الازدهار التى شب فيها ـ كان قد وصل الى درجة الانسحاب من الحياة والنظر اليه شزرا فى العديد من القضايا الجادة ، ومن هنا كان جهد ابن رشيق فى اثارة عدد من القضايا حوله بحذر شديد ـ كعادته ـ ، وقد رأى ان الواجب عليه الا يقيم تناقضا بينه وبين الحكام ، ولقد ذهب فى هذا بعيدا الى حد اعتبار الشاعر ملهاة على حد ما نعرف من ديوانه ، وان كان يشفع له فى هذا أنه ساق عددا من النصوص التى كان فيها الشاعر بطلا ، وكان فيها الشعر صاحب قضية .

ــ 3 ــ

تعرض ابن رشيق لقضية هامة هى قضية القديم والجديد ، وهو كعادته لا يصدع برأيه فى حسم ، ولا يقوله الا من خلال عرضه لكافة وجهات النظر ، مع مراعاة أذواق المهيمنين على الحياة ، ولقد كانت فى هؤلاء المهيمنين على الحياة محافظة شديدة على التقاليد ، وانعطافة زاعقة للقدماء .

وهو يقسم الشعراء تاريخيا الى أربع طبقات : جاهلى ، ومخضرم ، واسلامى ومحدث ، ثم يضع المحدثين فى طبقات يهبط متأخرها عن متقدمها ، ثم ينصح المتأخرين بالا يغتروا بحلاوة اللفظ ورشاقة المعنى ، لانه فى الجاهلية والاسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة ، وسبق الى كل طلاوة ولباقة .

على أن وجه القضية يتغير حين يذكر أن كل قديم من الشعراء كان محدثا فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله، وان مذهب أبا عمرو واصحابه يقوم على تقديم المتقدمين على المعاصرين للحاجة الى الشاهد وقله ثقتهم بما يأتى المولدون « ثم صارت لجاجة (1) » ثم حين يقف عند رأى ابن قتيبة الذى يقول : لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، وأيده برأى للامام على يقول : ليس احدنا احق بالكلام من احد وانما السبق والشرف معا فى المعنى ، ومن ثم نراه

(1) نفسه 56 و 57

يقف موقفا تعادليا يقول : وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن ٠ ثم نراه يخطو خطوة حين يقف وقفة طويلة عند ابى الحسن محمد الحسن بن على بن وكيع وقد ذكر أشعار المولدين فقال : انما تروى لعذوبة ألفاظها ورقتها وحلاوة معانيها وقرب مأخذها ، ولوسلك المتأخرون مسلك المتقدمين فى غلبة الغريب على اشعارهم ووصف المهامه والقفار وذكر الوحوش والحشرات ما رويت ، لان المتقدمين اولى بهذه المعانى ، ولا سيما مع زهد الناس فى الادب فى هذا العصر وما قاربه ، وانما تكتب اشعارهم لقربها من الافهام ، وان الخواص فى معرفتها كالعوام ٠٠ الخ ، ثم يتكلم من لهاة شيخه عبد الكريم بن ابراهيم الذى يقول قد تختلف المقامات والازمنه والبلاد فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند اهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه ، وكثر استعماله عند أهله ، بعد ان لا تخرج من حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد الفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال اهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم ٠٠٠ الخ ، ثم يصل الى رأيه الحاسم فيقول : « قال صاحب الكتاب وانا ارجو ان اكون باختيار هذا الفصل واثباته ههنا داخلا فى جملة المميزين ان شاء الله ، فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذى لفظه سائر فى كل الارض معروف بكل مكان ، وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقا سفسافا ولا باردا غثا ، كما ليست الجزالة والفصاحة ان يكون حوشيا خشنا ولا أعرابيا جافيا ولكن حال بين الحالين ، واذا كان قد وافق سابقيه على ثلاثة أسس مؤثرة فى الشعر هى : المقام او الحال والزمن او العصر ، والبلد او المكان والبيئة ، فانه يضيف أساسا رابعا هو الجودة او الحسن المطلق الذى يخضع له كل من القديم والحديث (I)

ثم انه فى العديد من النقول والاصول نراه يلتزم المحدثين ، ويؤكد على ظاهرة تفوقهم فى المعانى ، هذا بالاضافة الى ما قال من شعر ، فهو يلتزم فيه تماما نظرة المحدثين فى عصره ٠

(I) انظر باب فى القدماء والمحدثين 56 وما بعدها ، تاريخ النقد العربى ٠ د ٠ محمد زغلول سلام 2/142 ٠

ومما يتصل بهذا انه تعرض لقضيتين هامتين هما قضيتا : الصدق الفنى والشهرة ، ومن خلال حديثه نفهم انه لا يريد تطابقا ومحاكاة للعالم الخارجى ، ولكنه يريد ما يسمى باتساق الشعر مع نفسه ، وعلى كل فهو ـ من خلال هذه القضية يحكم على ابن سلام الجمحى بالتناقض حين يسوق قولا عن عمر بن الخطاب معناه ان زهير كان لا يعاظل فى الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما فيه كما يقول : ان زهيرا كان أحصف الشعراء ، وابعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من المنطق واشدهم مبالغة فى المدح ، فهو يقول : قال صاحب الكلام واذا قوبل آخر كلام عمر بآخر هذا الكلام تناقض، لان عمر انما وصفه بالحذق فى صناعته ، والصدق فى منطقه ، لانه لا يحسن فى صناعة الشعر ان يعطى الرجل فوق حقه من المدح لكيلا يخرج الامر الى التنقص والازدراء ٠٠٠ وهذا اسهام منه فى تحديد « الواقعية » فى الشعر العربى والقاء ضوء باهر على قضية «الصدق الفنى» ، وهو يستشهد لقصيدته ولرأى عمر بالذى قال لزهير معلقا على بيته ٠

ولانت اشجع من اسامة اذ
دعيت نزال ولج فى الذعر

انت لا تكذب فى شعرك فكيف جعلت هرما اشجع من الاسد فقال : انى رأيته فتح مدينة وحده وما رأيت اسدا فتحها قط ، ثم يقول ابن رشيق « فقد خرج لنفسه طريقا الى الصدق وعدى عن المبالغة » (1) ٠

اما قضية « الشهرة » فهو يذكر ان امزجة الناس تختلف فى اكثر ما قيل فى تفضيل شاعر على شاعر ، وجماعة على جماعة ، ثم يحسمها بقوله :

والاشتهار بالشعر اقسام وجدود (2) ، ومن خلال حديثه نعرف انه يميل الى القول بان الشعر معاناة « اشد من نقل الصخر » ، وانه لا يعرف الشعر الا جيدا ، فهو يستثقل ـ كما يقول ـ الشعر الوسط والغناء الوسط ، وهو مع الشاعر المفلق لامع الشاعر المطلق او الشويعر او الشعرور (3)، بل انه يزيد الأمر وضوحا حين يقول : وانما سمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به

---

(1) انظر باب مشاهير الشعراء 59 وما بعدها
(2) نفسه 64
(3) نفسه 74

غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختــراع ، أو استظـراف لفـظ وابتدا عه او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعانى أو نقص مما اطاله سواه من الألفاظ ، او صرف معنى الى وجه عن وجه اخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له الا فضل الوزن وليس بفضل عندى مع التقصير، كما أنه يرى ان الشعر ــ كالبحر ــ اهون ما يكون على الجاهل ، وأهول ما يكون عـلى العالم واتعب اصحابه قلبا من عرفه حق المعرفة ··· وهكذا نرى ابن رشيــق قد نظر للشعر نظرة جادة وعميقة ، فليس هناك مكان الا للجيد من الشعر، ثم انه يؤكد عنصرى الحرية والابداع للشاعر ، ذلك لان الشاعر لا ينقل ولا يعبر وانما يخلق ، بحيث تتحول كل اداة من ادوات الشعر الى لمسة جديدة تختلف عما عند الآخرين ، فالشعر عنده عملية « رفض » للمسبق ، وتجاوز للآفـاق المعروفة عند الناس ، فاذا لم تكن هناك عملية خلق فلا بد على الاقل ان تكون هناك عملية تطوير أو تغيير ، وهكذا لا يسير الفنان وراء الطبيعـة والنـاس ، وانما تسير وراءه الطبيعة والناس ، فهو لا يتبع الا نفسه ، وفنه ، وهكذا يؤكد بحسم عنصرى : الحريه والابداع ·

— 5 —

ثم نرى ابن رشيق يقدم بابا هاما يسمى : باب حد الشعر وبنيته ، يذهـب فيه الى انه لا بد للشعر من اللفظ والوزن والمعنى والقافية، ثم يورد القصد بعد ذلك لاعتبارات دينية ، وبعد ان يستانس ــ كعادته ــ بآراء الحذاق فى ذلك يعلن رأيه الذى يقول والبيت من الشعر كالبيت من الابنية قراره الطبع ، وسمكه الرواية ودعائمه العلم ، وبابه الدربة ، وساكنه المعنى ولا خير فى بيت غيـر مسكون وصارت الاعاريض والقوافى كالموازين والامثلة للابنيه ، او كالاوافى والاوتاد للاقبية ، فأماما سوى ذلك من محاسن الشعر فانما هو زينة مستأنفه ولو لم تكن لا ستغنى عنها (1) ، وهو لا يفضل اللفظ على المعنى كما يذهـب الكثيرون ، ولا يفضل المعنى على اللفظ كما يفعل البعض ، وانما يصل الى لب الحقيقة حين يقيم توازنا بينهما فى عملية الصهر، فالذى بينهما كالذى بين الروح والجسم كل يضعف بضعف الآخر ويقوى بقوته « فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الاجسام مـن العـرج والشلل والعور وما اشبه ذلك من غير ان تذهب الروح،وكذلك انضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك اوفر حظ كالذى يعرض للاجسام من المرض

(1) نفسه 77 وما بعدها

بمرض الارواح » (1) ان هناك من رجح اهتمامه باللفظ على المعنى اعتمادا على وجوده في بيئة المغرب التى كانت تهتم بالمعنى ، وعلى بعض النصوص (2) ، ولكن تراث الرجل ككل يؤكد قوله بالتوازن بينهما وهذا ما انتهى اليه عبد القاهر والنقد الحديث ·

وهو يركز على « الوزن » تركيزا واضحا ، وهذا التركيز يجيء اليه من فهمه لطبيعة اللغة العربية والتراث الشعرى ، ولهذا يقول صراحة : الوزن اعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة الا ان تختلف القوافى فيكون ذلك عبثا فى التقفية لا فى الوزن، وقد لا يكون عيبا نحو المخمسات وما شاكلها ، وهو لا يلزم الشاعر المطبوع بمعرفة الاوزان وخصائصها بعكس الشاعر الضعيف الطبع ، ومع انه يسوق المتعارف عليه من علمى العروض والقافية ، الا ان له بعض اللمسات الفنيه كقوله : وينبغى للشاعر أن يركب مستعمل الاعاريض ووطيئها ، وأن يستحلى الضروب ويأتى بالطفها موقعا واخفها مستمعا وان يجتنب عويصها ومستكرهها فان العويص ممايشغله ويمسك من عنانه ويوهن قواه ويفت فى عضده ويخرجه عن مقصده ، وكقوله : ومن الزحاف ما هو اخف من التمام وأحسن كالذى يستحسن فى الجاريه من التفاف البدن واعتدال القامة مثال ذلك مفاعيلن فى عروض الطويل التام تصير مفاعلن فى جميع أبياته (3) ، وكقوله : اذا لم يصرع الشاعر قصيدته كان كالمقسور الداخل من غير باب ومعنى هذا كله انه يحتكم الى الذوق كما يحتكم الى القاعدة ، ولقد نقل عن الاصمعى قوله : الزحاف فى الشعر كالرخصة فى الفقه لا يقدم عليها الا فقيه ·

— 6 —

وهو يتعرض لقضية الطبع والصنعة ، فالمطبوع هو الاصل الذى وضع أولا، وعليه المدار، فهو الدفقة الشعورية الاولى التى تأتى للشاعر بعفوية وبساطة، اما المصنوع فهو ما جاءت صنعته من غير قصد للشاعر او ما جاء عن طريق التصنع والافتعال ، ويمثل الجانب الاول من المصنوع البحترى ، بينما يمثل الجانب الآخر من المصنوع ابوتمام ، وهو — كعادته فى اغلب ما يأخذ من الاراء — يأخذ بالوسطية ، ولنتأمل قوله : ولسنا ندفع ان البيت اذا وقع مطبوعا فى

---

(1) نفسه 80 ·

(2) ابن رشيق · عبد الرؤوف مخلوف 104 وما بعدها ·

(3) هذا هو القبض ·

غاية الجودة ، ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لـم تؤثـر فيـه الكلفة ، ولظهر عليه التعمل كان المصنوع افضلهما الا انه اذا توالى ذلك وكثر لم يجز البته ان يكون طبعا واتفاقا اذ ليس ذلك فى طباع البشر ٠٠ وسبيل الحاذق بهذه الصناعة اذا غلب عليه حب التصنيع ان يترك للطبع مجالا يتسع فيه (١) ، ولقد جعل من التصنيع استعمال الحضرى للغة البدوى ، واستعمال البدوى للغة الحضرى لان كل واحد منهما سيخرج عن طبيعته وصدقه الفنى ٠

— 7 —

ثم يتعرض لنظام بناء القصيدة فى باب بعنوان «باب المبدأ والخروج والنهاية» فيقدم لنا تركيبة القصيدة العربية التقليدية ، وكيف انها بهذه القصيدة ليست بسيطة وانما للصنعة فيها الشىء الكثير ، وهو يعلل لذلك بأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ولطافة الخروج الى الممدوح سبب ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام أبقى فى السمع وألصق بالنفس ، فهو يربط الشعر هنا بالسامع لا بالشاعر، وبالمنفعة لا باللذة الفنية ، ومع هـذا فهو يلمح الفروق بين الشاعر البدوى والشاعر الحضرى ويلزم كلا منهما بالصدق الفنى ، ومع انه يلزم الشعراء بهذه القاعدة الا انه يسمح لهم بالخروج اذا كان هناك داع فنى لذلك ، ثم انه لم يمل الى رأى الحاتمى الذى يرى الانسجام بين المقدمة الغزلية وموضوع القصيدة ويرى ان القصيدة كالانسان فى التحام اعضائه، فاذا كان هناك تباين فهو اشبه ما يكون بالعاهة،فابن رشيق يقول صراحة : ومن الناس من يستحسن الشعر مبينا بعضه على بعض، وانا استحسن أن يكون كل قائما بنفسه، لايحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده وما سوى ذلك ، فهو عندى تقصير الا فى المواضع المعروفة مثل الحكايات وماشاكلها ، فان بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد ٠٠ وقد كان صريحا حين اعتمد على ذوقه هنا وفى الوقت نفسه كان موضوعيا حين نقل رأى الجاحظ فى القضيه والذى يقوله : أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه افرغ افراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان٠٠ثم يعلق على هذا الرأى قائلا: واذا كان الكلام على هذا الاسلوب الذى ذكره الجاحظ لذ سماعه ، وخف محتمله ، وقرب فهمه ، وعذب النطق به ، وحلى فى فم سامعه ، فاذا كان متنافرا ومتباينا عسر حفظه وثقل على اللسان النطق به ، ومجته المسامع ، فلم يستقـر فيهـا منـه شـىء (2) ٠

---

(١) العمدة ١/5 ، 86 ٠

(2) العمدة ١/١7 وما بعدها ٠

ولقد تعرض ابن رشيق لعملية الابداع بروية بعد ان مر بها القدامى سريعا ، ولقد كان وراءه فى هذا انه رصد عملية الابداع فى نفسه فهو شاعر جهير وفيمن حوله ، وابتداء فهو يومىء الى الموهبة ، ثم يشير الى الثقافة ودورها فى العملية الشعرية ، وبخاصة ما يتصل منها برواية الشعر ، ثم يتحدث عن التجربة وعن طموح الشاعر ، وهو يسوق لنا هذا القول الذى يقول: من أراد الشعر فليعشق فانه يرق ، وليرو فانه يدل ، وليطمع فانه يصنع ، وفى الوقت نفسه يتحدث عن قضية الاستمرار فى الشعر لانه كعين الماء ان تركت اندفنت وان استهتنت هتنت ولكنا نجد الشاعر قد تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا ، ومن ثم فعليه ان يريح نفسه لانه حين يقول بعد ذلك سيأتى بكل آبدة ، او عليه ان ينشط نفسه ، ثم يتعرض لعملية التنشيط عند الشعراء ، فذو الرمة كان ينشط نفسه بذكر الاحباب ، والفرزدق كان يركب ناقته ويطوف خاليا وحده فى الشعاب والاودية معا ، وكان ابو تمام ينصب القافية للبيت ليعلق الاعجاز بالصدور — وذلك هو التصدير فى الشعر ..الخ ثم يقدم طريقته الخاصة فيقول: والصواب ان لا يصنع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته ، غير انى لا أجد ذلك فى طبعى جملة ، ولا اقدر عليه ، بل أصنع القسيم الاول على ما أريده ، ثم التمس فى نفسى ما يليق به من القوافى بعد ذلك فابنى عليه القسيم الثانى ، افعل ذلك فيه كما يفعل من يبنى البيت كله على القافيه ، ولم أر ذلك بمخل علي ولا يزيحنى عن مرادى ، ولا يغير على شيئا من لفظ القسيم الاول الا فى الندرة التى لا يعتدبها او على وجه التنقيح المفرط (١) ..
وكما فصل بين الصنعة والتكلف (التصنيع) نراه يفرق بين سرعة البديهة والخاطر ويرى ان الاول اقل جودة من الثانى ، فالابداع المتروى يقدم الخبرة الجمالية ، ويجعل الشاعر قادرا على الانتقاء والاختيار ، ذلك لان العمل الفنى فى صميمه تنظيم وصياغة ، وعلى كل فهو بصفة عامة يقف الى جانب عمود الشعر الا ما يقف ضد الشعر والشاعر ، وهو يربط الشعر بالتكسب فيذكرنا بتلك العلاقة التى تكون بين الجميل والنافع ، ثم انه يؤمن بقوة الشاعر التى تجعله قادرا على القول فى كل جوانب الحياة لان هذا معناه انه يصدر عن كون كامل ، وعن شخصيه حرة .

— 9 —

وقد عقد بابا فى أغراض الشعر وصنوفه ، وسار فى الطريق الذى عبده من قبل أبو تمام ومن جاء بعده ، وقد جعل ابن رشيق الاغراض عشرة هى :

(١) نفسه ١/١٤٠

النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعيد والانذار ، والهجاء ، والاعتذار ، والوصف ، وهذه الاغراض أشبه بالعصر الذى عاش فيه ابن رشيق ٠٠ وهو يسوق هذه الاغراض مع حشد من أقوال الآخرين ، ولكن صوته لا يغيب فى هذا الخضم كقوله ان الاخذ فى الرثاء يجب ان يكون مشغولا عن التشبيب ويعتذر لدريد لانه اخذ ثأره بعد سنة،وكقوله : من اشد الرثاء صعوبة على الشاعر ان يرثى طفلا او امرأة لضيق الكلام عليه ، وكقوله : العتاب وان كان حياة المودة وشاهد الوفاء فانه باب من ابواب الخديعة يسرع الى الهجاء ، وكقوله ينبغى للشاعر ان لا يقول شيئا يحتاج ان يعتذر منه ٠٠ الخ بعد ان يفرق ابن رشيق بين الاختراع (هو خلق المعانى التى لم يسبق اليها والاتيان بما لم يكن منها قط) وبين الابداع وهوالاتيان بالمعنى المستظرف والذى لم تجر العادة بمثله نراه يغرقنـا فى أبواب غزيرة كبـاب المجاز الذى يتعصب فيه للعرب لانه بوساطته « بانت لغتها عن سائر اللغات » ، وكبـاب الاستعارة وهو يجعلها افضل المجاز واول ابواب البديع ، وهو يجعل «التمثيل» ضربا من ضروب الاستعارة،وهو يذكر ان التشبيه يقع ابدا على الاعراض لا على الجواهر،كما نراه يتعرض للعديد من الالوان البلاغية كالجناس والطباق والتكرار وهو فى الكثير منها له لمسات ذكية ، ووقوف على الشواهد الممتعة ٠

— ١٥ —

٠٠٠ واخيرا فانه تعرض لقضية السرقات الشعرية فى رسالته قـراضة الذهب (١) ،

والرسالة موجهة الى صديقه ابى الحسن على بن القاسم اللواتى ، لانه أنشد بيتين لابن رشيق ، قائل : لقد أخذا من شعر لعبد الكريم النهشلى ، وقد أثار هذا ابن رشيق ودلل بحماسة جياشة« انه لوعد مثل هذا سرقه لم يسلم شيء من الكلام » ، وفى الوقت نفسه يقرر ان السرقة انما تقع فى البديـع النادر ، والخارج من العادة ، وذلك فى العبارات التى هى الالفاظ (٢) كما يقرر ان المطابقة والتجنيس افضح سرقه من غيرها لان التشبيه وماشاكله يتسع فيـه القول ، والمجانسه والتطبيق يضيق فيما تناول اللفظ ، وهو منفعل فى رسالته بعكسه فى كتابه العمدة الذى تغلب عليه الموضوعية ، وهو يختمها بقوله :

رسـالــة بينــة الاعــــذار
باحت بما تخفى مـن الاسـرار

---

(١) انظر الطبعة الاولى (١٣٤٤ ــ ١٩٢٦) مكتبة الخانجى ٠

(٢) نفسه ١٤

أدل من فجر على نهار
وفضل ذاك السر فى الاظهار
لطيفة المسلك فى اختصار
خفيفة الروح على الافكار
كأنها من جودة العيار
(قراضة من ذهب) الدينار

واخيرا

فهذه مجرد اشارات الى عالم ابن رشيق الذى نراه قد استطاع ان يؤصل النقد العربى ، وان يفيد افادة كاملة من آراء المتقدمين ، وان يصدر فى الغالب فيما يصدر عن فهم عميق بطبيعة الحضارة الاسلامية ، وبطبيعة اللغة العربية ، فنحن نجدفيه ـ على الرغم من روميته ـ حماسة لكل ماهو عربى ،ولكنها ليست الحماسية الزاعقة ، وانما هو عشق شديد للموضوع الذى تصدى له ، وعملية اختياره للشعر ووضعه اضافة لا تنسى فى هذا المجال تدل على انه قد وصل الى ان الشعر هو روح الحضارة العربية ، ولحنها المميز ٠٠٠ كما ان لكل حضارة لحنها المميز ، ولقد كان وراء ذلك ـ بلا شك ـ انه شاعر اصيل عرف ومارس الشعر باقتدار ٠٠ ولهذا يجىء كتابه العمدة بصفة خاصة فى مقدمة ما كتب على كثرته ، واذا كنا قد لاحظنا عليه انه كان محافظا فى بعض الاراء ، وانه كان يصدر عن نظرية يمكن تسميتها « الوسطية » فهى لا تتنكر للقديم ولا تنكر الجديد ، فانه كان يصدر فى ذلك عن واقع النظرية الاسلامية ، وعن روح التراث العربى ٠

المهم اننا اذا اردنا ان نتعرف على نظرية الشعر عند العرب فان الكتاب الذى يؤصل لهذه النظرية هو كتاب « العمدة » ولقد ساعد ابن رشيق على هذا ان عمليات الابداع فى النقد العربى ، وفى البلاغة قد وصلت اليه كاملة من القرون الريانة التى سبقته ، وانه كان شاعرا فى الوقت نفسه ٠

د٠ عبده بدوى
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

يا أمة تعاد

شعر : محسن بن حميدة

ها أنني قد عدت يا مدينة الاسلام
شوقي على كفي وقلبي مستهام
أسوق في تحيتي رسالة الرباط :
المازري يقريكم السلام
يا أهل قيروان

* * *

يا أمة قد أخرجت للناس
في خير خلقة وباس
أحيت مكارم الأخلاق
هبت الى الغد الخلاق
ووطدت أركانها والساس
بحكمة وتقنة كمالها نبراس
من الذى يا إخوتي يقول
بأننا قد عاقنا الشمول
إيماننا من قبس الالاه
ما دام في قلوبنا طموح
وفي حمى ديارنا صروح
إيماننا سيخلق الحياه

* * *

اليوم يوم عيد
سنكسر القيود
ومن عقالها نحرر العقول
فنمتطي كواكب الوجود
ونبعث الامجاد والاسلام من جديد
فلن نعيش عالة على الجدود

* * *

لقاؤنا يا إخوتي أعياد
يمزق من يومنا السواد
وكل ما قد كان
لا بد أن يعاد
فعزمنا نجاحنا والزاد

* * *

يا إخوتي الكرام
قصيدتي مفقوءة العينين
مشلولة اليدين والرجلين
إن أنتم لم تنكروا عبادة الأوثان
كي يومض الشوق
تسايروا الأزمان
وبانفجار الحلق
تسيروا الأكوان

* * *

لو كان لي جناح
لطرت في التاريخ
الى ما بعد قرن
او بعد نصف قرن
متى يمتزج الزمان بالمكان
والعقل بالحنان
فيسعد الانسان

* * *

يا إخوتي الكرام
موعدنا غدا في موطن الرباط
فالمازري في صمته الرهيب
وعزه بمجدنا القريب
ينظرنا في قوة الايمان
ونشوة الفرحان
يا أهل قيروان

م٠ ح٠

ادب الغربة عند القيروانيين

بقلم : أحمد القديدى

اذا كان الأدب هو خلاصة الحضارة ، وأصدق ما فى الانسان ، فان الشعر هو أرق فنون الأدب جميعا وأوثقها صلة بالنفس ، لما ضم من شتات الروح وما احتوى عليه من أحاسيس فكان المعبر الاول عن الـذات ، والصـادر عن الاعماق ، يعبر نهر الصمت والعزلة على جسر رائع من حروف وصور واضواء فيكتسح القارىء ويهزأ بالحدود والقيم المختلفة ليستقر فى كيانه • ولا يخفى أن تاريخ الحضارة العربية مشحون بالجمال الذى صنعه الشعر فكانت القصائد العربية ذخرا يعود اليه المرء فينمو احساسه بأصالته ، ويتربى على محبـة الكلمة العربية التى هى كزيتونة يكاد زيتها يضىء ، ويشعر باحتضان الأمة التى انجبت نوابغ الشعر والأدب ، ويشرف الانتساب اليها •• ولعل الأدب العربى الى جانب هذا لم يخل من عوامل عديدة ، جعلته أحيانـا يغـرق فـى اليأس وينشد الخذلان والرضوخ للقـدر والحيـاة ••• ويعـود إلى السطحية والابتذال ، أو ينطلق من القيـم الجامدة ، فتتحجر مضامينه أحيانـا ويلـد ذلك حتما الى فساد الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسيـة والاخلاقيـة لبعض المجتمعات العربية فى القديم ، حيث كان الأدب صورة من صور فساد هذه المجتمعات وتوقف نموها • فكان الشاعر شاذا ، او يائسا ، أو متخاذلا أو قانطا أو كاذبا متزلفا ، مما ادى بعض النقاد الى الافراط فى تشويه هـذا الأدب • واعتبار الشاعر العربى القديم اشبه بالمهرج الراقص على الحبـال • ولكننا اذا امعنا التحديق نزهاء فى حياتنا الفكرية العربية ، وتأملنا مضامينها الحسية والعاطفية ، وجدنا جلها كنزا لا يفنى من الصدق وحرارة التجربة • ولعل الحاحنا اليوم على موضوع الغربة وأدبها ، ومدى تأثيرها على صناعـة الأدب هو فى جوهره الحاح على هذا الصدق الذى ذكرنا وإلحاح على التلقائية الرائعة التى قلما عثرنا عليها فى المضامين المختلفة الاخرى • هـذا وتحتـل الغربة مكانا بارزا من الآداب والتأملات الفلسفية حيث نجدها فى الآداب القديمة وخاصة الاساطير الاغريقية والفرعونية والهندية والصينية فالمـلاحم العريقة تزخر بشعور الاغتراب لدى أبطالها،وكتابها ومصنفيها ورواتها•ويضيق المجال هنا لعرض أشتات من هذا الاحساس • كما ان لكلمة « غربة » نفسها معنيين أعطاهما الانسان لها فى أدبه وتفكيره عبر القرون •• فهناك غربة المرء عـن

وطنه وعشيرته ومنتديات صباه ومرابع هواه ، وهو شعور طبيعي يشترك فيه كل الناس مع اختلاف مستوياتهم وعصورهم وأمصارهم ولربما شاركه فيه حتى الحيوان بما اختزنته نفسه من غرائز الألفة والتشبث بالمكان ٠٠ وهناك الغربة الروحية كما اتفق لبعض أهل الادب أن يدعوها ٠٠ وهذه الغربة احساس غامض مبهم بالانعزال والانغلاق يعترى المرء وهو بين أهليه وذويه ، يصنعها الحرمان من ممارسة حريته وفكره وعواطفه بصورة طبيعية ، او هى تنتج عن طلاق فكرى بين المرء وقومه ، أو تباين في الاخلاق والنظرة المصيرية ، او انعدام الحوار بينه وبينهم مما يؤدى الى الاحساس بهذه الغربة وفقدان الصلة الانسانية بما فيها من دفء وحرارة وقداسة ٠ هذا وقد زخر الادب التونسى منذ نشأته بصدق المضامين ، وخاصة فى الحلقة العربية الاسلامية من تاريخنا ، المتمثلة جلها فى حضارة عاصمة الاغالبة وما تفرع عنها من عمران فى سائر افريقية والاندلس وصقلية ، وبذلك كان الادب مترجما واعيا لازمة العصر الذى عاشه ، ومرآة نقية الصفحة تعكس التحولات الحضارية الكبرى ، حيث كان أدب الغربة مثلا خلاصة خراب القيروان واندثار معالمها ، وخراب القيروان كان خلاصة أحداث سياسية واقتصادية وعقائدية معلومة وهذه الاحداث هى خلاصة العصبيات والازمات التى يعتبرها ابن خلدون أساسا لنشأة ومـوت الحضارات ٠

ومن أجل وضع هذا الأدب فى اطاره ، وجب علينا التعريـج على البيئـة القيروانية وخاصة فترة الدولة الفاطمية حيث ورثت عن الدولة الاغلبية ملكا ثابت الاركان بما توفر لافريقية من حياة فكرية وعمرانيـة وعلميـة مدعمـة بمختلف الكتب والتصانيف والتراجم ٠٠ إذ انه منذ ولاية أبراهيم الاول سنة 184 هجرى 800 م واستقرار العائلة الاغلبية فى العباسية ، ثم فىرقادة على يدى ابراهيم الاصغر سنة 264 هـ ، بدأت الحضارة العربية الفتية تتفتح عـلى الحضارات القوية الراسخة ولا أدل على متانة الفكر واستحكام تلاقحه مع سواه مما ذكره لنا المؤرخ الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قائلا عن خزائن الكتب التى ضمهـا بيت الحكمة ما يلى : « اننا لا نشك ان هذه المجلدات كانت تتعلق بسائر العلوم الدينية الاسلامية وغير الدينية ككتب الجدل والخلاف ، مما كان له رواج ملحوظ فى ذلك الوقت شرقا وغربا كما تشتمل على المصنفات المترجمة من اللغات الاعجمية كاليونانى والسريانى والفارسى والهندى ، كما انه من طريف ما يذكر ما أورده ابن ناجى فى معالم الايمان قال : ان عبد الله بن غانم انصرف يوما من الجامع الاعظم بالقيروان ، فدخل عليه بعض أصحابه ، فسأله ابن غانم : هل حضرت الجامع ؟ قال نعم ، قال ابن غانم : كيف رايت ، قال :

رأيت اصلحك الله به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوة فقيه ٠ فتراجع ابن غانم وقال متأسفا : مات الناس ! » وربما كانت فى رواية ابن ناجى مبالغة ولكنها تشير على كل حال الى بلوغ افريقية شأوا عظيما من العمران والاشعاع ٠ كما ان حال التعليم والمؤسسات التربوية كان مزدهرا وقد عرج كتاب بساط العقيق على ذلك قائلا : « ولم ينحصر التعليم فى الكتاتيب والجوامع بل ان العائلات الموسرة كانت تجلب لابنائها المعلمين الى منازلهم » ٠ وهكذا رأينا ان الملك الذى أنتقل لدولة الفاطميين كان ثابت الاركان لما توفر له من أساس فكرى راسخ واقتصادى متين حيث ذكر البكرى فى المسالك والممالك أنه كان يدخل من أحد أبواب صبرة من معاليم المكس فقط يوميا ستة وعشرون ألف درهم ٠٠ » وقد ورث المعز بن باديس عند توليه أريكة الملك سنة 406 هجرى خلاصة هذه النهضة التى أنشأها الاغالبة ودعمها ذووه من أهل الدولة الفاطمية ، حيث استقل بمملكة شاسعة الاطراف ، ما لبثت ان اندثرت لاسباب منها كما اورد الكاتبان محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحى أن المعز لقن فى صباه مذهب أهل السنة ، وتربى على عداء مذهب ملته وعشيرته وهم شيعة ، فناصر أهل السنة مما أثار غضب الخلفاء الفاطميين فى مصر ، حتى اصبح المعز يجاهر بعداوتهم ، ثم استقل بملكه باعانة الخلافة العباسية ببغداد سنة 440 هـ ٠٠ حتى اضطرت الدولة الفاطمية بمصر الى تأديبه بتقويض عاصمة عزه وتخريب معالم عمرانه وشجعتها على ذلك حالة الصعيد المصرى وما يعانيه من مجاعات وأزمات دفعت كما ذكر بعض المؤرخين بوزيرهم اليازورى الى تنفيذ الانتقام وتخليص صعيد مصر من قبائل بنى هلال وبنى سليم فأرسلهم الى افريقية بعد ان اصبحت فى اذهانهم حلما من احلام الثروة المجانية واقامة مملكة يتقاسمها الاعراب ويعششون فيها الى ابد الدهر ٠٠ وهكذا ، ورغم سياسة المعز وتقريبه لامرائهم ، لم تنج القيروان وضواحيها من نكبتها الكبرى ، وكان أن تهدمت رموز مجدها ، واندحرت معالم رفعتها وأحرقوها ولم يبقوا بها الا المساجد كما اورد ابن خلدون وانصرف عنها اهلوها الى اصقاع الارض ، مشردين ضاربين فى المدن والقرى والفيافى ، ومن أجل ذلك اتسم أدبهم الحزين بطابع القتامة الدائمة والحنين المتفجر والأسف العميق حيث لم يتغربوا تاركين وراءهم مدينة ماجدة قائمة الذات بل مخلفين أطلالا دارسة تبعث على اليأس والقنوط ٠ فكانت نكبة الشعراء من القيروانيين لهذا السبب ذات وجهين : غربة وانعزال ، ثم حزن لاندثار افريقية وسقوط واسطة عقدها القيروان فأصبحوا كالذين ذكرهم ابن الرومى بقوله :

يحبب أوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

نعتقد اذن ان اولى وأهم نكبات القيروان هي الزحفة الهلالية وسنرى فيما يلي أبعد آثارها فى أدب الشعراء الذين كانوا رغم تفاوت سنهم وتباين شهرتهم الأدبية ـ يعمرون بلاط المعز لما كان لهذا الملك من حب غامر للشعر وأهله ، ثم انطلقوا مهاجرين حيث قصد الحصرى مدينة سبتة ثم الاندلس وفر ابن رشيق الى المهدية ثم تحول الى صقلية كما انصرف ابن شرف الى الاندلس حيث مات بدار الغربة هناك .

ولنتأمل معا أولا فى غربة ابى الحسن الحصرى القيرواني الضرير الذى كان فراق القيروان لديه حلقة منسلسلة رزئه بفقدان ولده عبد الغني وفقدانه لبصره . فكان شعره بعد نكبة القيروان تعبيرا مريرا عن الحرمان الدائم ، وانطلاقا واعيا لارادة هذا الشاعر فى أن تطمئن نفسه وان يعود الى وطنه لينعم بمرابع صباه ومجالس تلامذته وأصفيائه .. وقد نقل لنا ابن بسام فى الذخيرة عن الحصرى فيما نقل تائيته الشهيرة التى رثا بها القيروان وشحنها بأرق واصدق معاني الحنين ، ويستهلها بتأملات أقرب هى الى التحديق الميتفيزيقى فى الاغتراب والموت والحياة ، فى مطلعها :

موت الكرام حياة فى مواطنهم فان هم اغتربوا ماتوا وما ماتوا

رأينا اذن كيف يخرج الحصرى بهذه النتيجة الاليمة حيث يعتبر الموت فى الوطن الام حياة سرمدا كما يعتبر الاغتراب فى الحياة موتا حقيقيا ، اذ تنعدم صلة الانسان بماضيه وتنتشله يد القدر عن خصوبة ايامه الخوالى لتلقى به فى ديار بعيدة .. ويمضى الحصرى فى تائيته الرائعة التى نعتبرها من أجمل ما قيل فى هذا الشأن فيخاطب الشاعر من تبقى من أهل وده فى القيروان ، واعدا اياهم بالعودة ، ضامنا لهم تفكيره فيهم قائلا :

يا أهل ودى لا والله ما انتكثت عندى عهود ولا ضاقت مودات
لئن بعدتم وحال البحر دونكم لبين ارواحنا فى النوم زورات
ما نمت الا لكى ألقى خيالكم وأين ما نازح الاوطان نومات
أصبحت فى غربتى لولا مكاتمتى بكتنى الارض فيها والسماوات

ثم يحس الشاعر بما يضارع عندنا اليوم شعور العبث ، فتعظم الرزية فى ذهنه ، ويندهش للمعادلة الغريبة التى جمعت بين شبابه النضير فى القيروان

حينما كانت كعبة قصادها من العلماء والأدباء وبين كهولته البائسة فى سبتة بعد إنهيار كبريائها ، فيكون احساسه بالغ الصدق ، وافر الطاقة الابلاغية ، يختزن مرارة التحسر يقول الحصرى :

كأننى لم أذق بالقيروان جنى   ولم أقل ها لأحبابى ولا هاتوا
أبعد أيامها البيض التى سلفت   تروقنى غدوات او عشيات
إنى لأظمأ والأنهار جارية   حولى وأضحى ودون الشمس دوحات

ثم يأخذ الشاعر المغترب الى ضفتي اليأس والامل، فهو قانط حينا وآمل حينا آخر فى نفس القصيدة ، تتقاذفه موجتان ، الواقع وما يحمله من بذور اليأس ، والحلم الذى يغذى ضميره ويملأ جوانحه ، الواقع المرير والحلم الذى ينبع كزلال الماء فى الصحراء ، فيرتاح الحصرى فى واحته برهة اذ يقول وهو يطارد اشباح الضجر والعناء ليتعزى :

لا يشمتن بها الاعداء ان رزئت   ان الكسوف له فى الشمس أوقات

ولكن الشاعر ، رغم هذا الايمان بقداسة موطنه الاول ، وتشبيهه اياه بالشمس التى ستعود حتما الى اشراقها وطلوعها وبعد منالها ، رغم ذلك يطحنه الواقع بكلكله،ويوقن أن الطمع فى العودة مجرد حلم وتمن،وان مدينته الحبيبة أصبحت مستحيلة البلوغ كالسراب يقول :

هل مطمع أن ترد القيروان لنا   وصبرة والمعلى فالحنيات
ما ان سجى الليل الا زادنى شجنا   فأتبعت زفراتى فيه أنات
وما أرى الموت الا باسطا يده   من قبل ان يمكن المأسور افلات

وبعد الايمان بعجز النفس ، وفراغ التمنى ، يستعيد الشاعر ذكرياته بالمدينة ويستجمع شتات الماضى ، ويعدد مفاخر القيروان وما اختزنته نفسه من احاسيس العرفان والألفة .. كأنما يتخيلها ويرسمها فى ذهنه المتعب ليعوض عن غربته ، ويعيش معها وفيها بأحلامه فقط : فينشد :

ألا سقى الله أرض القيروان حيا   كأنه عبراتى المستهلات
فانها لدة الجنات تربتها   مسكية وحصاها جوهريات
إن لم يكن نهر عذب يسيل بها   فان أنهارها أيد كريمات

والتعويض من أسس هذا الادب النثر ، حيث يتخذ الانسان ، حتى فى اشق ساعاته ، حلما من أحلام النفس ، وسرابا يعيش على لمعانه الكاذب ، ثم ان الحصرى كغيره من شعراء جيله المغتربين ، تفنن فى تصوير العبث الذى ابى الا ان يحدث نكبة العاصمة الاسلامية بافريقية ، فيعبر الحصرى عن مدى تأثير هذه الصدمة فى نفسه ، فيعجب لمسيرة الحياة كيف لم تتغير ، وحركة الطبيعة كيف لم تتحول ، لهول ما شاهده الشاعر عند خراب القيروان ، فيصرخ من أعماقه فى قصيد آخر قائلا :

تلثم حياء يا زمان من العلا مضيت بمعروف وجئت بمنكر
مضيت فما للأرض بعدك لم تمد وما للسماء المجد لم تتفطر

رأينا اذن كيف يطالب الحصرى الحياة بطريقة أدبية غير مباشرة أن تشعر كما يشعر هو بالنائبة القصوى ، يطالب أن تميد الارض وأن تتفطر سماء المجد للرزء ، وينشأ الاحساس بالغربة من صمت العالم ، ولا وعيه وتواصل خطه العادى دون اكتراث ، فيظل قلب الانسان هو المرآة الوحيدة المنعزلة التى ينعكس فيها الالم دون ان تحدث المعجزات من حوله لأنه **لا شىء خارج قلب الانسان سوى العدم ، او اشياء اخرى من أمر التخيل المريض الخائف** . ونلح على شعور نفسى ثان عند الحصرى عندما يصف لنا ضيق الحياة من حوله ، كأنها تضاءلت حتى ضاقت به أو هى أمست كالقبر ضيقا يتنفس فيها المرء بدون طلاقة ، يحس أن الأعباء التى يحملها أكبر وأوسع من الوجود الذى يتحرك فيه يقول الحصرى :

تفكرت فى الدنيا وفى غربتى بها فضاقت على الارض فى الطول والعرض

وقال فى غيرها :

سئمت حياتى والمقام بطنجة كأن بلاد الله غير عراض

ولما كان اغتراب الحصرى مقرونا بفقدان ولده عبد الغنى ، فقد امتزج حرمانه من وطنه بحرمانه من فلذة كبده ، وكأنهما صرحان تهدما فى كيان الشاعر ، بعد أن كان عبد الغنى سلواه فى عزلته ، وواحته فى صحرائه وظله فى رمضائه ، يقول :

كنت فى غربتى كأنى به فى وطنى فانقضى فعدت غريبا
لم يدع فقده لمغناى معنى فخلا آهلا وضاق رحيبا

يستحيل الابن هنا الى أنس وألفة تشد أباه الى أرض غربته ، فينعم بوجوده وينسى القيروان ٠٠ يقول الحصري في مطلع قصيد آخر :

نسيت بــه جنتــي القيــروان وعشت بـه نـاعمـا فـي لظـى

وأروع ما يدلنا على امتزاج الفقدين ، واختلاط التأثيرين ، هذا الوصف التلقائي لوضع الشاعر وهو يتألم في غربته ، قائلا :

مغتــو بـالدمــع مغتـــرب مـا لـه مـال ولا ولــد
قـد عـاثت الاعــراب فـي بلــد فـاكتسـي ثـوب البلـى البلـد ٠

وينقل لنا المؤرخون أن الحصري لم يكن أقل حظوة في المغرب أو الاندلس من شعرائهما ، فقد قربه أولو الامر فيهما ، لكنه كان دائم التبريح ، خاصة عندما تساء أحيانا معاملته أو يتكدر حينا عيشه ، فيحتد احساسه بالانفصال ويصبح نشيده أكثر رهافة وسنورد بضعة أبيات من رائيته الجميلة تكون خاتمة حديثنا عن الحصري ، وهي تشير الى مسخ المفاهيم المتعارفة لدى الغريب إذ تستحيل القيم الى أضدادها ويضيع المرء بين القبول والرفض بين الرضى والغضب ، يقول الشاعر :

أعادي على فضلي واستصحب العدى ولي حسنـات عنـدهـم هـي أوزار
وحـق بكـاء العيـن والقلب مسعـد لمن بـات مثلـي لا حبيـب ولا جـار
شفـى اللـه داء القيـروانين بعدنـا فقد مـرضـت للقيـروانين أبصـار
وكيف غناء الطير في غيـر أيكهـا وقـد بعـدت عنهـا فـراخ وأوكـار
وانـــي لأولـى بـالبكـاء لانهـــا تطيـر اذا اشتاقت ومـا انـا طيـار
الا يـا بروقـا لـحن من نحـو صبـرة وليـس لهـا الا دموعــي أمطـــار
عسى فيك من مـاء الحبيبـات شربـة ولو مثل مـا يوعـى من المـاء منقـار

أما أبو عبد الله محمد بن شرف ، فقد غادر القيروان للأسباب نفسهـا ، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة متحدثا عن العفاء والنكبة وحال ابن شـرف منهما قائلا :

« وسال سيل فتنة القيروان ، اللاعب بأحرارها ، المعفي على آثارها . فتردد ابن شرف على ملوك الطوائف بالاندلس ، بعد مقارعة أهوال ، ومباشرة خطوب طوال ، وقد نبت شفرته ، وطفئت جمرته ، وقد قلت فيما تقدم انه انتحى منحى القسطلي في شكوى الزمن والحديث عن الفتن ، كان معه كمن تصدى الرياح بجناح ٠ وقابل الصباح بمصباح ٠ »

هذا وتورد لنا الكتب القديمة التى عاصره كتابها أنه استقر مدة يمدح سادة الاندلس مما قربه إليهم وجعلهم يخصونه بالنعمة والمنادمة والانس • وقد زخر شعر ابن شرف بأصدق معانى الحنين الغامر للقيروان وأرق مشاعر الرثاء للبلد الامين الذى رعى صباه وشهد على اغر أيامه الماضية • والتاريخ يذكر لنا المساجلة الظريفة التى جرت بينه وبين ابن رشيق حول الاندلس وأحوالها السياسية وظروف الاقامة فيها حينما قال ابن رشيق لزميله ابن شرف :

مما يبغضنى فى أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

فأنشده ابن شرف قائلا :

ان ترمك الغربة فى معشر قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت فى دارهم وأرضهم ما دمت فى أرضهم

وهكذا نرى أن ابن شرف مطواع كيس ، يقدر حق الاستضافة ، او على الاقل هو يدارى نقمته السياسية التى تعتبر موقفا واضحا من تجزئة وتقسيم الأمة العربية الى ممالك وأسماء وأشلاء مبعثرة فى أطراف بلاد واحدة •• ولنقتحم أدب هذا الشاعر الرقيق ، لنستشف فى حنينه واغترابه أكثر الشعر شجوا وأدقه تعبيرا وأنقاه كلمة وأقواه ابلاغا • يقول فى قصيد له فى رثاء البلد الامين :

آه للقيروان أنة شجو عن فؤاد بجاحم الحزن يصلى
حين عادت به الديار قبورا بل أقول الديار منهن أخلى
ليت شعرى هل عودة لى فى الغيب الى ما أطال شجوى أم لا ؟•

ويظل البكاء والتلهف يطبعان أدب ابن شرف فى زمن محنته ، حتى يكاد المرء منخلال شعره انيستمع للأنة تلو الأنة،وأنيشاهد الدموعتنهمر منعينيه المنكسرتين ، ويمتزج التحسر على انقضاء عهد الصبا بالامل اليائس فى عودة هذا العهد ، فيطلق الشاعر العنان للحلم والتخيل ، ويرجو أن تتجاوز قدرته حدودها ، وان يصبح جبارا بما تمنحه له الطبيعة من أدوات اخرى للانطلاق ، حيث يشعر بالعجز القاهر يشله ، وتتحول الحياة لديه الى سجن فسيح ، فهو انسان ، والانسان مرتبط بالارض لا يبرحها فى ذلك الحين ، فيكون شعر ابن شرف فى بعض قصائده نتيجة لانكسار رغبته واستحالة أمنيته فينشد :

يا قيروان وددت انى طائر فأراك رؤية باحث متأمل
آها وأية آهة تشفى جوى قلب بنيران الصبابة مصطلى
يا أربعى فى القطب منها كيف لى بمعاد يوم فيك لى ومن أين لى ؟

هكذا حلم الشاعر بالطيران حتى يختصر المسافة ، ويحلق فى الجو متأملا مواطنه ٠٠ والأدب كان دائماً وما يزال يزود العلماء بطاقة الحلم ، فيمضون للاكتشاف والخلق وأصبح الآن من الاشياء العادية واليومية أن يطير الانسان الى من يهوى مهما تباعد المكان وشطت المسافة ، وهو حظ لم يتح لابن شرف ٠ ويمضى الشاعر فى نفس القصيد ، فيؤكد لنا أنه مهما لقى من الاحسان فى أرض الاندلس سوف يبقى على عهد الذكرى ، يمارسها كما يمارس المتعبد صلاته فى خشوع ٠ يقول :

لا كثرة الاحسان تنسى حسرة هيهات تذهب علة بتعلل
لو كنت أعلم أن آخر عهدهم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وكما وصل الحصرى باحساس الغربة الى درجة التأمل الماورائى ، كذلك فعل ابن شرف حيث يتعدى شعره فى أحيان كثيرة مجرد الشكوى الى تحليل صروف النكبة ، ويعطى فى أدبه أبعاداً ذاتية للحدث التاريخى ، فهو يحمل التاريخ والقدر أعباء النكبة القيروانية ، ويؤمن أن المدن ربما تلقى من الزمن عقابا عن جرم مجهول اقترفته ، وهنا ينبع تفكير الشاعر من الاساطير الدينية حيث تصبح القيروان كارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، أو هى مثل سدوم ٠٠ أو غيرها من المدن التى نزل عليها غضب الآلهة فدكها دكا وعادت طلولا ٠٠ يتساءل الشاعر :

ترى سيئات القيروان تعاظمت فجلت عن الغفران والله غافر

ان ابن شرف يقيم هذه المقارنة ليحلل الفاجعة ، ويتخيل للمدينة ذنوبا ربما اقترفتها،فجلت سيئاتها عن الغفران،لكن عقيدته الاسلامية تدفعه للايمان بمغفرة الله ٠٠ ويجتمع فى شعر ابن شرف كما رأينا صدق العاطفة مع التفكير العميق الذى يعطى طابعا انسانيا لهذا الادب ، يجعلنا نستنكر او نكاد ما قيل فى مضامين أخرى جعلت الادب فى تلك الحقبة يتسم بالتحجر والسطحية ٠

هذا هو الوجه الشعرى لابن شرف أما الوجه النثرى وهو ذو بال ، فيرسم لنا بأكثر دقة وأوفر طرافة تأثير الاغتراب فى نفسية الكاتب ، حتى أن الغربة اصبحت تمثل سلم قيم خاص ، عليها يعتمد الكاتب فى تقييم نتاج غيره وهو

الناقد الحصيف ، وذلك مما جعل نقد ابن شرف يتسم بالذاتية الصادقة حيث لم يستعمل فى رسالته النقدية ما اتفق عليه أسلافه وما علب من المعـايير ، بل هو يستنجد بتجاربه كمواطن غريب خبر الترحال وعرف معاناة الكلمـة المشردة . يقول ابن شرف فى نقده لكثير عزة الشاعر العذرى ما يلى :

« أما كثير فحسن النسيب فصيحه ، لطيـف العتـاب شحيحـه ، شجـى الاغتراب مليحه .. »

هنا اصبح الاغتراب وما يضعه من نتاج فكرى ، معيارا أساسيا لدى ابـن شرف ، به يقيم مدى جمال العمل الأدبى ، ولم نجد هذا الميـزان الطريـف لدى سواه من النقاد ، وفى موضع آخر يتحدث ابن شرف عن أبـى فـراس الذى عانى مرارة الاسر والاغتراب مثل ناقده فيقول :

« ملك زمانا وملك أوانا ، اشعر الناس فى المملكـة ، وأشعرهـم فى ذل الملكة .. » هنا يقسم ابن شرف حياة ابن فراس الى جزئين هامين هما المملكة ويعنى بها امارة أبى فراس وزمن نعمته والملكة أى الاسـر والمهانـة .. وفى موضع ثالث ، فى بعض مقاماته ، يحدثنا الكاتب عن فتى ، فيريد أن ينقل لنا ما ضم من جميل الخصال ورائع المنن ، يقول :

« حدثنى الجرجانى قال : كان فتى بجرجان من أبناء الآقيال ، قد جمع الى النهاية فى المال الغاية فى الجمال ، كان مألفا للأدباء ومأوى للغرباء » .

يلح ابن شرف كما اسلفنا على أن هذا الفتى الجرجانى كان مأوى للغرباء ، وهذا يقع ضمن سلم القيم الاخلاقية الخاصة التى أصبح الكاتب يدين بها بعد اعتزاله لوطنه لانه لمس شدة حاجة الغرباء لمأوى ، وحدة حساسيتهم للمعاملة وبحثهم الدائم عن الانتماء والانتساب . ومما لا شك فيه ان المغتربين من أدباء القيروان كانوا لدى معاصريهم مشتهريـن بتشبثهـم بذكـرى الارض التى ولدوا بها ومعروفين بمحبتهم الغامرة للقيروان وحنينهم الملتاع لمرابعهـا .. فهذا المظفر ابن الافطس يكتب لابن شرف رسالة ضمت فيما ضمـت أمنيـة المظفر لزميله قائلا :

« والله المان بك برده الى وطنه واهليه ، يبلغك ما ترتجيه ، ويعيد حالك الى عهدها ، والجمع بينك وبين الطبقة التى كنت واسطة عقدها .. »

١٠ ق٠

ترى بأي ضياء يصمد الفلك

شعر : محمد عمار شعابنية

مُدي له وجهكِ القرْوِي والكفّا ... واستقبليه حبيبا ـ عاد ـ أوْ ضيْفَا
وجدّدي له عهدا كان فيه فتى ... وكنتِ فيه فتاة حلـوة هيْفَا
ولا تردّي له خيْلا إذا زحفتْ ... فهل يردّ شجاع يحمل السيْفَا
فهو الذي عاد من تِرْحال أزمنةٍ ... ما ضيّعتْ من شذى اشعَاره حرفا
لتعرفي أنّ من تهوى مشاعـرُهُ ... يبقى محبّا ولو طال الهوى ألْفَا
فأنتِ في عمره (بريسكا) ورَوْعتها ... وهو الفتى (مشلينا) غادر الكهفَا

كم عمر عينيه لمّا كان مضطجعا ... على سرير من الاحلام والشوق
يداعب الشمس مزهوا بروعتها ... فترقص الشمس في أرجوَحة الأفق
ويستريح إذا جيش المعزّ أتى ... بالنصر من غزَوات الشرق والغربِ
يحاول البحر أن يُثني مراكبَهُ ... فيطعن البحرَ في الأحشاءِ والعمقِ
والبرّ منبسط يخشَى ضراوتَه ... كالنار إن مرّ قد يفني ولا يبقِي
وانت فيِ قلبه نبضٌ يحرّكه ... وينقل الزيت من عرْقِ الى عرْقِ

دعيه يحلم بالماضيِ الذي ذَهَبَا ... ولم يخلّف سوى التاريخ والكتبا
تروي بطولاتِ من كانت عزائمهم ... ريحا إذا عصفتْ لا تترك السحبَا
ولا تلوميه عن بعدِ الزمان ولا ... تستغْربيه إذا من امرنا عجبَا
لاننا لم نرِثْ امجاد أمتنا ... كأننا لم نكن من نسلها عَرَبَا
تمرّ ايامنا العرجاء فيِ وَهَنٍ ... ونحن نقطع فيها العُمْرَ كالغرَبَا
وحولنا أممٌ تعلو مجنّحة ... لتبلغ الشمس والاقمار والشّهُبَا

نحن الذين أضعنا كلّ ما ملكُوا ... وكلّ ما أخذوا منّا وما تركُوا
كأنما نام في أعماقنا شَلَلٌ ... عظامنا لم تعُدْ كالأمس تحترِكُ
غاصتْ سفائننا والبحر طاوَعهمْ ... والجوّ لمّا رأهم بات يرتبكُ
كلّ الوجوه الى قاماتهم نظرتْ ... خوْفا .. فلما رأوها هكذا ضحكوا
وراوَدُوها على أحلامها فأبَتْ ... فسوّطوها .. ومن خيراتها انتهكوا
ونحن نسأل ماضينا وحاضرها ... ترى بأي ضياء يصعد الفَلَكُ

م. ع. ش.

من قصص أعدادنا القادمة

- « في ذكرى مولدي » لرشيد الغالي
- « امرأة — جسد » لبوراوي عجينة
- « الحزن » لمحمد الحبيب السالمي
- « سمفونية الحياة » لمحمد الحبيب براهم
- « هي والشمس والمطر » لساسي حمام
- « المهرج » تمثيلية لحسن نصر
- « خير الدين » تمثيلية لوحيد الخضراوي
- « أبواب » لفتحي لواتي
- « يوميات مجنونة » لحياة بن الشيخ

مطالعات

طبيعة المبحث ومبناه في كتاب «الشخصية التونسية» (1)

بقلم : عبد العزيـز الهانـي
أستاذ الفلسفة الاسلامية
بمعهد ابن شـرف

لعل هذا العنوان بألفاظه الثلاثة يقتضى شيئا من التحديد قبل النظر فى هذه القضية :

ونقصد **بطبيعة المبحث** اللون الفكرى الذى يمكن أن ندرج فيه الكتاب ونوعه وجذوره وخصائصه العامة ، **وبالمبنى** هيكل المؤلف شكلا (أى أدوات ووسائـل تعبيرية) ومنهجا ٠

ويبدو لقارىء « الشخصية التونسية » أنه بازاء مبحث يتصل بلون المقالة التى هى فن أدبى وفكرى مستحدث فى فنون الكتابة والقـول عنـد الكتـاب العرب ، إذ يعود ظهوره الى عهد النهضة فى العالم الاسلامى فى القرن الماضى وازدهر فى تونس على ايدى أعـلام النهضة فى الحقـل السيـاسى والثقـافى والاجتماعى نذكر منهم على سبيل المثال : خير الدين التونسى الذى ألف كتاب «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» (2) المتمثل فى دعوة الى اصلاح الاسلام وشؤون المسلمين عن طريق الأخذ بأسباب التقدم فى اطار « العودة الى الاصول » ــ أى الاصول العامة للشريعة الاسلامية دينا ومنهجا فى الحياة ــ مع الاقتباس مما عند الغربيين من أسباب العمران وهنا تتداخل الاصالة مع التفتح لرسم معالم النهضة وسبلها عند ــ أبى النهضة الأول ــ خير الدين التونسى ٠

---

(1) « الشخصية التونسية » مقوماتها وخصائصها ، تأليف البشير بن سلامة ــ نشر وتوزيع عبد الكريم بن عبد الله ٠ تونس 1974

(2) « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » تأليف خير الدين التونسى ــ تحقيق المنصف الشنوفى

ونذكر أيضا مقالات « حركة الشباب التونسي » وجمعيتي « الخلدونية » و « قدماء الصادقية » ومحاضراتهما ، وما كتب الشيخ عبد العزيز الثعالبي (1) والطاهر الحداد وكتابيه : « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » و « العمال التونسيون » الى جانب ما كتب أبو القاسم الشابي نثرا وأعني خاصة محاضرته المعروفة « الخيال الشعري عند العرب » (2)

وازدهر هذا اللون ـ كما يبدو من **استقراء** صحافة القرن التاسع عشر والمطلع الاول من القرن العشرين « وتصفح أحوالها » على حد تعبير ابن الهيثم ـ على صفحات «العالم الأدبي» و«العمل» باللسانين العربي والفرنسي و«المباحث» ـ والندوة ـ والفكر ـ وذلك نتيجة تواز ومواكبة بين حركة الاصلاح السياسي والثقافي من ناحية وحركة الحفاظ على الشخصية والذود عنها من ناحية أخرى ٠

أما الموضوع نفسه فقد ظل محور عمل الوطنيين وأقوالهم إذ نجد صداه في افتتاحيات مجلة « المباحث » ومجلة « الفكر » ونجد القضايا المتصلة بالشخصية التونسية والثقافة القومية والأصالة والتفتح والعلاقة بين العامية والفصيحة وماهية قضايا التونسة والتعريب على صفحات ـ الملحق الثقافي (3) ـ لجريدة « العمل » وفي الندوات الأدبية والفكرية التي تنتظم بدور الثقافة ونواديها ـ

ولئن كان هذا الموضوع ـ «موضوع الشخصية التونسية» ـ غير ذي غرابة عن المثقف التونسي ـ وحتى عن نصف المثقف او شبهه ـ فان كتاب « الشخصية التونسية » جاء ليحرك السواكن عن طريق إثارة العديد من القضايا الجوهرية والعرضية تحتاج الى دراسات مفردة تعمقها وتثريها والى حوار خصب يثيرها ٠ ولعل دراستنا البسيطة هذه صدى لهذه القضايا ومدخل الى ذلك الحوار **ونتيجة لزمت** عن ذلك المبحث ، وسيدور بحثنا حول مبنى المبحث : أولا على مستوى الشكل وخصائصه اللغوية والتركيبية والمنهجية ، وثانيا حول مدى تجاوب الشكل الذي اعتمده المؤلف مع طبيعة الموضوع ٠

1 ـ مبنى المبحث

إن القارىء ـ لكتاب الشخصية التونسية ، يلاحظ أن عنوانه يضم قسمين : المقومات والخصائص وينتظر من المؤلف أن يخضع بحثه الى قسمين ايمانا منه

(1) كتابه : « تونس الشهيدة » مثلا

(2) أبو القاسم الشابي : الخيال الشعري عند العرب ٠

(3) ولا ندري لماذا انقطع عن الظهور

بأن **الواو** لم تكن أداة عطف لمترادفين ، بل هي أداة عطف لاسمين متباينين •

الا انه بعد انهاء الكتاب قراءة لا يظفر بما تمناه ولا يفوز بالقسمين الموعودين • فما علة ذلك ؟

إن السبب في الواقع هو طبيعة البحث نفسه اذ أن صاحبه لم يقصد منه تاليف بحث علمي دقيق يخضع لمعطيات المنهجية التي تخضع اليها الدراسات الجامعية قصد اجتياز اختبارات على مستوى البحث بل ان ــ العلة الغائية على تعبير المناطقة ــ من وراء البحث هي صيحة وعي وصوت استفاقة من جمود و « محاولة » لاستكناه مسيرة شعب طوال بحثه عن مقومات كيانه ــ فالاطار الفكري الصحيح الذي نشأ عنه هذا الأثر هو صمت عن التعبير وركون الى نقد ــ وانتقاد ــ نكل ما يظهر من نشاط ادبي وفكري وابتعاد عن ميادين الخلق والانتاج إضافة الى معايشة الكاتب بعض القضايا معايشة فكرية جعلته يسرع بتأليفه ونشره بين الناس •

ولعل **المؤلف** نفسه أشار الى هذا المعنى حين أكد « أن كتابه **لا يطمح أن يكون** دراسة **علمية** منهجية بل هو خلاصة معايشة فكرية لقضايا حضارية وثقافية تشغل باله منذ سنوات » •

ألا تملي طبيعة البحث وظروف تاليفه تحررا ما من قيود **الجفاف** العلمي و « تقنيات » البحوث ؟

فلا غرابة ــ بعد هذا إذا ما طالعتنا في الكتاب بعض التراكيب الدخيلة على المستوى اللغوي تعكس في جوهرها آثار الازدواجية اللغوية التي اكتسبها المؤلف بحكم تكونه من ناحية وبحكم اشتغاله بتعريب البحوث المؤلفة في اللسان الفرنسي (1) من ناحية أخرى وحتى بعض قصص الكتاب الجزائريين (2) الذين كتبوا بالفرنسية •

فاذا نحن نقرأ بعض التراكيب التي تتحدى ما يسميه النحاة العرب ــ الاشتغال ــ كقول المؤلف : « ألا يعرفنا أيضاً بالثمن الباهظ الذي كنا ندفعه **لتذوق وتفهم** لغة هؤلاء العباقرة »

(1) نذكر كتابي المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان : « تاريخ إفريقيا الشمالية » و « المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي » الشركة التونسية للتوزيع وذلك بالتعاون مع الاستاذ محمد مزالي

(2) نذكر أقاصيص محمد ذيب مثلا ــ انظر مجلة الفكر سنة 1961

وقوله أيضا على سبيل المثال : « والأشعار والنصوص التى يفتخر فيها أهل البلاد الغابرين **بعزة وبمكانة** العربية عديدة ... »

ونلاحظ لونا آخر من التراكيب المعربة فى قوله : (1) « وكثرة هذه الآثار تدل لا محالة **بأن بلادا** تكاثرت فيها هذه المدن لا يمكن أن يفطر أهلها الا على أول امتياز تمتاز به المدينة وهو العلم .. »

وكذلك فى قوله (2) « إذ أصبح يشعر التونسى بأن لغة أخرى تزحف على لغته .. »

وانه فى مستطاع المختصين فى اللسانيات أن يستنبطوا دواعى تعريب بعض التراكيب وأسرار تآلفها مع هياكل الجملة العربية أو تنافرها معها ، وهذا مظهر من مظاهر اثراء اللغة الفصيحة لا بما تضم اللهجات من تراكيب وهياكل تتماشى وروح اللغة الفصيحة بل بما يمكن أن يتلاءم مع طبيعتها نحوا وصرفا وتركيبا من اللغات الاخرى وبذلك تسلم اللغة من علة الانعزالية وتصير فى مأمن من التنكر اليها .

ثم ان طبيعة المبحث لم يقتصر تأثيرها على مستوى الجملة والتركيب فقط بل تعداهما الى الالفاظ نفسها فاذا بنا نلاحظ انزلاق بعض الاوصاف الخاصة بصنف من الاشياء لتصبح تصف صنفا آخر . ولعل ذلك هو ما عناه الصفويون فى ميدان اللغويات بظاهرة اللحن على مستوى الدلالة (وخاصة منهم المقعدون اى المرتبطون كل الارتباط بالقواعد) وما سميت فيما بعد بظاهرة التعميم Géneralisation واعتبرت وجها من وجوه اثراء اللغة ولا حرج من ذلك باعتبار أن اللغة كائن ينمو ويتطور ويحيا بالاستعمال ـ ومثال ذلك ما نقرأ (3) « وكذلك من الالفاظ والتراكيب واللهجة الأنيقة الفحلة ما ينبىء عن مواطن القوة والرجولة »

فاستعمال ـ الفحلة ـ لوصف اللغة مظهر من مظاهر التعميم فى هذا الباب لأن الفحولة من شيم الحيوان ـ ناطقا كان أو غير ناطق ـ وليس من شيم الاشياء **كاللغة** مثلا .

---

(1) طالع ص 115 .

(2) نفس المرجع ص 102

(3) نفس المصدر ص 109 .

الا أن تأثير طبيعة البحث على المؤلف تبدو بصورة أوضح على مستوى المنهج المتوخى فى تحديد المفاهيم من ناحية وفى طريقة ايراد بعض الاعـلام وبعـض المصادر التى كانت عمدته فى التأليف ·

فنلاحظ **قلة الامثلة للاستدلال** أثناء عرضه لبعض القضايا الشائكة مما جعل حديث المؤلف فى أغلب الاحيان كلاما نظريا مجردا يبعد عن تصور الذهن اليه بسهولة كقوله (1) أثناء ابراز الغايات من أجل دراسة النهجات العامية ومدى تأثيرها على الفصيحة : « وهذا التطعيم لا يعنى بحال ادخال الضيم فى **نحوهـا** بل هو بعث الحياة فى **هياكل الجملة** فتظهر التراكيب قديمة متفقة مع الفواعـد المعروفة ، وهى فى الواقع قد طبعت بنفس جديد خاضع لمقومات العاميـة فى قربها من الحياة ·· »

ألا يحتاج هذا الكلام النظرى بالنسبة للقارىء متوسط الثقافة الى تبسيط عن طريقة أمثلة ، خاصة وأن هذا الكتاب غرضا كتب فى إطار « **عمل سياسى أدبى هادف** »

فكيف يمكن أن يفوز « بتسجيل هدفه » إن هو لم يقبل على قراءته عدد وافر من القراء ــ خاصتهم وعامتهم ؟

ونضيف الى ذلك خلو الكتاب من جداول إحصائية بيـانية لعـدد المتعلمين بتونس(2) عبر العصور حتى يتبين القارىء تزايد العدد ونقصانه وأسباب ذلك من ناحية وحتى يقترب الكتاب من الطابع العلمى المنهجى التعليمى من ناحيـة أخرى ، اذ بدون ذلك يصبح البحث ضربا من ضروب التقارير المملة ·

ويبدو اهمال جانب العلمية والمنهجية شيئا ما فى الطريقة المتوخاة من المؤلف لاستغلال المراجع والمصادر اذ يهمل أحيانا(3) ذكر المصدر أو تاريخ وفاة صاحب المؤلف كما فعل مثلا بالنسبة للخبر الذى استقاه من كتاب **المسالك والممالـك** لابن حوقل حين قال عن المعلمين « وهؤلاء المعلمون يرون أنفسهم أنهم أفضل السكان وأنهم أهل الله »

---

(1) نفس المصدر ص 109 ·

(2) ص 174 نلاحظ سردا لا رسما بيانيا أقرب للفهم والتفهيم ·

(3) ص 136 من نفس المرجع ·

فنحن لا نعرف من هو ابن حوقل ولا تاريخ وفاته وعصره ولا لون كتابه ولا الفصل الذى أخذ منه هذا القول ٠

وكذلك يذكر مثلا خبرا عن المعز لدين الله الفاطمى « يؤكد لنا أن قسما من رعايا هذه البلاد لقن تلك اللغة وغيرها من اللغات ٠٠ »

ولا نعرف المصدر الذى اخذ منه الخبر ٠

لكن رغم هذه الخصائص التى تبعد كتاب « الشخصية التونسية » شيئا ما عن طابع المنهجية العلمية بجفافها وقسوتها فانه لم يخل من مظاهر الطرافة والاصالة اذ ضم عددا كبيرا من المفاهيم الفنية للتعبير عن بعض القضايا الفكرية والظواهر اللغوية التى عايشها المؤلف وعاناها والتى تخلع على الكتاب خصائص ومميزات هى خصائص طبيعة المبحث ومميزاته ٠

فاذا بنا أمام مفاهيم لغوية لا يكتفى الكاتب باستعمالها دون سابق تحديد ــ كما يفعل الكثير من « النقاد والكتاب » ــ بل يحددها فاذا ــ **الغربة اللغوية** ــ تظهر « **مفهوما مفتاحا** » من مفاهيم المؤلف وهى (1) : « هذا الشعور الدائم بان اللغة الاصلية مهددة وهذا النزوع الى عدم الاكتفاء باللغة الام ٠٠ » ويفحص عن أسباب ظهورها (2) فينتهى الى أنها « كانت فى الاول درءا للخطر وجرا للنفع ثم لما تغلغل الدين فى النفوس كان حب تعلم اللغة العربية وحب التعلم بصفة عامة وغايته معرفة هذا الدين الجديد وارضاء الغريزة الدينية المبثوثة فى الانسان البربرى فى ذلك الوقت ٠٠ »

وتأخذ ــ الغربة اللغوية ــ عند المؤلف أبعادا جديدة ناتجة عن التحول التاريخى والانتقال الحضارى اللذين مرت بهما « الشخصية التونسية »

والى جانب ذلك يستعمل المؤلف أيضا ــ **ألفاظا مفاتيح** ــ كالانصهار **والصهر** والاصالة (ويعرفها « بالوفاء للذات الامينة » والتفتح والتعريب والتونسة والتآلف ٠٠

وأخيرا هل تجاوب البناء مع طبيعة المبحث ؟ ان خلو الكتاب من جداول بيانية ومن تحقيقات علمية للألفاظ وللأعلام والمصادر المعتمدة لا تنشىء نشازا

---

(1) طالع ص 116 ٠

(2) نفس المصدر ص 133 ٠

بين البحث وطبيعته بل تؤكد الاتجاه الذى أراده المؤلف لكتابه والهدف الذى رمى اليـه ٠

الحوصلــة :

ومما لا شك فيه هو أن ــ الشخصية التونسية ــ كما أراده المؤلف « **محاولة** » أثارت أسئلة تحتاج الى اجابات فى شكل دراسات مفردة ، وسيكون ــ ان صح عزم الباحثين وأهل الذكر ــ مدعاة الى مباحث فى علم الالسنية La linguistigue للاهتداء الى ما يمكن أن يثرى الفصيحة من هياكل اللهجات العامية والالفـاظ والامثال التى تميز كل شعب من الشعوب العربية ٠

وسيكون أيضا مدعاة الى مباحث فى **علم التاريخ** للفحـص مثـلا عن كيفيـة انصهار البربر مع العرب الفاتحين على المستوى اللغوى والعقائدى والحضـارى مثلا ، وكتجاوب الحركة السياسية والحركة الفكرية والأدبية فى الثلاثينيـات ومثل قضية تكالب التونسيين عبر التاريخ على التعلـم ،٠٠ وسيثيـر حتى مشاكل فى المعماريات لنعرف ميزات كل شعب معماريا ٠ وكل ذلك سيمكن من تعميق البحث فى الشخصية التونسية لكن كل هذه المبـاحث « لا تمكـن ولا تكون ولا تستطاع » على حد تعبير أبى بكر السجستانى الا اذا انطلقنا من مقدمات تلزم عنها كل النتائج وتتمثل فى « **وجود الشخصية التونسية** » حاضرا وماضيا ومستقبلا ٠

ويكفى هذا الكتاب أهمية أن كان مؤلفه «مخلصا» لموضوعه أليس الاخلاص الفكرى من شروط الفوز فى الميدان الفكرى ؟

ع٠ ه٠

اضواء الفكر

• فى ذكرى ابن رشيق :

نظم اتحاد الكتاب التونسيين بتعاون مع وزارة الشؤون الثقافية ومساهمة فعالة من ولاية القيروان ملتقى ابن رشيق الذى تم انعقاده بمدينة القيروان خلال الاسبوع الثالث من الشهر الماضى واستمر ثلاثة أيام متوالية كانت ثرية بالمحاضرات واللقاءات بين الباحثين من تونس ومن غيرها سواء كانوا من مصر أو سوريا أو الجزائر ٠

وانقسمت أشغال الملتقى الى نوعين من الانتاج : دراسات وأماسى شعرية٠

أما الدراسات فساهم فيها كل من السادة :

- البشير بن سلامة (تونس) : بدراسة عنوانها « ابن رشيق الاديب الافريقى » ٠
- الدكتور المنجى الكعبى (تونس) « النهشلى رائد ابن رشيق فى العمدة » ٠
- بشير خلدون (الجزائر) : « النهشلى وابن رشيق فى العمدة » ٠
- حسين نصار (مصر) : « القصيدة فى العمدة » ٠
- محمد العروسى المطوى (تونس) : « تعريف بكتاب الأنموذج » ٠
- الدكتور عمر الدقاق (سوريا) : « مرثية ابن رشيق » ٠
- أحمد القديدى (تونس) : « أدب الغربة عند القيروانيين » ٠

أما الأماسى الشعرية فشارك فيها عدد من الشعراء التونسيين والضيوف ، وأهم المساهمات كانت من طرف الشعراء : محمد الحريرى (سوريا) ، جعفر ماجد (تونس) ، حسن كامل الصيرفى (مصر) ، دكتور عبده بدوى (مصر) ، جميلة الماجرى (تونس) ، محمد الأخضر عبد القادر السائحى (الجزائر) ، وجماعة من شباب الادب بالقيروان ٠

• أول ذكرى لابن رشيق :

اتصل اتحاد الكتاب التونسيين من الاديب والشاعر القيرواني الشاذلي عطاء الله برسالة لطيفة يذكر فيها ان جمعية الشباب الرشيقي نظمت قديما ذكرى لابن رشيق سنة 1936 ساهم فيها عدد من رجال الفكر بتونس وغيرها ، ويحيل على ادارة الاتحاد النصوص الاصلية التى ظل محتفظا بها الى الآن ومن هذه نص بعنوان « ابن رشيق الناقد » لعبد الكبير بن الشيخ عبد الحي الكتاني (من المغرب) ، ونص بعنوان « ابن رشيق والمعز بن باديس » لنور الدين بن محمود ، ونص بعنوان « مؤلفات ابن رشيق » للدكتور الطاهر الحميري .

وفي المناسبة نفسها القى الشاعر الشاذلي عطاء الله قصيدته التى مطلعها :

هي ذكراك توجب الاكبارا
وتهز النفوس والأفكارا
هي ذكرى تكبر كل كمين
افعمت هذه الدنا أخبارا

• عاشق صهيوني جديد :

انه ڤراهام ڤرين الذي رغم مجاهرته برفض العنف ، يقول بكل وقاحة : أن العنف الذي تنتهجه إسرائيل في علاقتها مع العرب وخاصة مع الفلسطينيين له ما يبرره ، ودون أن يوضح كنه هذا التبرير يكتفي بالقول : « إنني مؤيد لاسرائيل ، ربما لأنني وجدت نفسي فجأة الى جانب الاسرائيلي بعد حرب الايام الستة » (راجع كتابه « الدراسات » الصادر عن دار لافون بباريس) .

• الاستاذ أمبرتو ريزيتانو بتونس :

حضر في أواسط الشهر الماضي بتونس الاستاذ أمبرتو ريزيتانو المستشرق الايطالي المعروف لالقاء محاضرتين بالجامعة التونسية حول (حضارة صقلية العربية النورماندية) . وقد استغل المركز الثقافي الايطالي فرصة وجوده لتنظيم محاضرة حول نفس الموضوع ، تركزت بالخصوص حول الآثار العمرانية بصقلية على عهد راجار ملك صقلية ، وكانت مشفوعة بصور مضاءة وشروح مبسطة قدمها الاستاذ باللغتين العربية والايطالية .

• **المنشورات الجديدة :**

ـ أهدانا الصديق عبد الرحمان الكبلوطي نسخة من باكورة انتاجه وهو مجموعة شعرية بعنوان « خرساء حبيبتي » نشرها على نفقته فله شكرنا وتشجيعنا .

ـ كما وصلتنا نسخة من نشرية « الدين والحياة » التي تصدرها وزارة الاوقاف بجمهورية مصر العربية وهي كما يقول المكتوب المصاحب للنشرية « تجربة علمية بدأت في مطلع العام الهجري 1388 (مارس 1968) بنشرة قليلة الصفحات أخذت تنمو مع الايام في عدد صفحاتها وشمول أبحاثها » ، ولكنها حسب السفر الوارد علينا مؤخرا بلغت 434 صفحة .

• **باكورة انتاج الدار العربية للكتاب :**

بدأت الدار العربية للكتاب في اتحافنا بباكورة انتاجها وقد أهدانا مديرها الاستاذ محمد المصمودي كتابين جديدين وهما :

ـ المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا لمصطفى عبد الله بعيو .

ـ مقدمة في الفلسفة الاسلامية للدكتور عمر محمد التومي ونحن إذ نشكر مدير الدار على هديته الثمينة نتمنى لهذه المؤسسة التونسية الليبية الجديدة اطراد التقدم ومزيد الانتاج .

الفهـرست

العـدد 8 ـ مــاى 1975 ـ السنـة العشـرون

الفكر
مجلة ثقافية

تصدر بتونس شهريا
مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالى

رئيس التحرير : **البشير بن سلامة**
سكرتير التحرير : **عبدالواحد براهم**
الادارة . 13 نهج دار الجلـد ـ تونس
تليفون : 200.237
لحســاب الجـارى : 33769 ـ تونس
العنوان : صندوق البريد 556 ـ تونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى أوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :

اشتراك عـادى بتونس والبلاد العربية 3 دنانيـر .
اشتراكات بالخارج 3.500 ثلاثة دنانير ونصف
اشتراك الانـصـار د 5 دنانير

- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بـريدية باسم المجلة أو يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
- الرسائل لا ترد نشرت أم لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم : مدير مجلة « الفكر » صنـدوق البريـد عـدد 556 ـ تونس

EL FIKR - Revue mensuelle culturelle 20• Année N• 8 Mai 1975

طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجى سليم ـ تونس